الأقاصيص المائة قبل الأخيرة

الأقاصيص المائة
قبل الأخيرة

مجموعة قصصية

د. نيڤين عبدالجواد

الأقاصيص المائة قبل الأخيرة

اسم الكاتبة: د. نيڤين عبدالجواد
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف: مروة صلاح
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولـى
رقم الإيداع: 2018 / 23225

Arabiclibrary2017@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017

01030365801

جميع الحقوق محفوظة

وستظل هناك أقصوصة أخيرة بعد المائة

لم تُكتَب بعد.

إهداء

إلى كل من أدرك يومًا أنه واحدٌ ...

وربما وحيدٌ،

وإلى كل من تأمل ...

فأبصر لا نهائية الأفق،

وإلى كل من سيكتب أقصوصته هو بيده.

ما أن تبدأ فى التخلص من خناق ثقب الإبرة الضيق
فور اتخاذك قرار الاستيقاظ من سباتك العميق،
حتى تبدأ رحلتك الطويلة للصعود ..
فلا تؤجلها.

وهذه الأقاصيص المائة
ربما تضيءُ لك
طريقَ رحلتك
قبل أن تشرع فى كتابة
قصة صَحْوِكَ أنت.

مقدمة

هذا العمل الأدبى هو عبارة عن مجموعة من الأقاصيص يبلغ عددها مائة أقصوصة

تمت صياغتها بأسلوبٍ أدبى تعبيرًا عن رحلة الإنسان فى طلبه للصعود.

وفكرة العمل نبعت مما اعتاد عليه الصغار من سماع حواديت وحكايات قبل النوم تكون تمهيدًا لنومٍ عميق يطلبه الكبار لهم بعد يومٍ طويل معهم .. إذ كلما كان نوم صغارهم هادئًا، كلما ازداد الاطمئنان بالحصول على نومٍ مماثلٍ للآباء والأمهات.

وإذا كانت "حدوتة قبل النوم" هى الأمر المعتاد للصغار قبل شروعهم فى النوم، فماذا بعد أن يكبروا، وتتوقف تلك الحواديت وهذه الحكايات، ويجدوا أنفسهم غير قادرين على الخلود للنوم، أو حتى التنعم برفاهية الاستمرار فيه دون انزعاج؟!

وهل ستظل كل الحكايات والحواديت مقصوصة عليهم لكى يناموا؟!

أم أنهم بعد أن يكبروا سيتغير الأمر لتكون القصص الحقيقية هى التى تبدأ فور استيقاظهم من النوم لتستمر إلى الأبد؟

إنهم حال اتخاذهم القرار بالاستيقاظ، سيبدءون حكاياتهم هم التى سيحيونها مع كل يومٍ فى حياتهم.

ومع كتابة كل إنسان لحكايته هو، تتولد معه وحوله قصص وحكايات أخرى يراها ويعيشها ويتفاعل معها.

وتلك الأقاصيص هى نموذج لما يمكن أن يمر به كثير من الناس فور أن يستيقظوا من نومهم، فيجدوا أنفسهم فى قلب الحياة، ووسط ضبابها وبهائها، وبين خداعها وغدرها مرة، وبين انفراجها وزهوها مرةً أخرى.

وفى غمار تحدي الإنسان للبقاء على قيد الحياة بكل ما فيها من صعاب يكون قد أيقن أن النوم لم يعد راحته التى يبحث عنها بعد طول عناء، بل ربما يصبح هو سر عذابه لأنه لم يعد سوى مهربه من الحياة.

ولأنه قد اتخذ قراره بمواجهة الحياة لا الهروب منها، ولأنه وجد فى نومه الاستسلام لليأس والتسليم بالهزيمة، لم تعد أمامه أية خيارات من تلك التى ينعم بها غيره من المرفهين، بل أضحت الصحوة هى سبيله الوحيد للاستمرار حيًا.

وها هى الحياة نفسها –بعد أن واجهها– يجدها قد انتشلته من أحزانه وانتزعته من إحباطاته، وها هى لا تدعوه وحده للتمسك بها، بل تلح عليه أن يدعو كل من حوله ممن يعرفهم وممن لا يعرفهم لمشاركته فى صحوته وللتنعم بفضائل الاستيقاظ.

ومن هنا كانت تلك الأقاصيص دعوة عامة للاستيقاظ الذى يعقب النوم، وللنهوض الذى يلي الانكسار، وللحياة التى تنادى على من يستحق أن يحياها بقلبٍ جسور، وعقلٍ متقد، وحرية حركة، ليبنى قدر استطاعته، ويقدم الخير للجميع قدر طاقته، ويبذر بذور الأمل لكل مشتاقٍ لشهيق الحياة.

وإذا كانت تلك الأقاصيص مائة أقصوصة عابرة، فستظل هناك أقصوصة بعدهم جميعًا سيكتبها كل إنسان بنفسه ولنفسه ولمن حوله، لذا عليه أن يحسن كتابتها مع كل يومٍ يمضى من حياته. ووقتها فقط لن تكون غيرها من القصص والحكايات مجرد حوادبت عابرة، بل ستكون الجسر الذى سيعبر عليه الأخرون نحو شمس الحياة المشرقة التى لن تغيب مهما ألح الظلام فى طلب ابتلاعها.

إنه الصعود الذى يرجوه كل من اكتشف هبوطه من علٍ، والذى يأمل فيه كل من غمره الحنين بالعودة للأصل وللمنبع حيث الحياة الحق، والنعيم الحق، والسكينة الحق، والسلام الحق.

إنه الوصول للمنتهى الذى تكون فيه الأبدية هى اللانهاية، والخلود هو البداية التى ليس لها نهاية، والذى تكون معه للذكرى حكاية، وللذاكرة هدف، وللقصة حقيقة، وللخَلق غاية، وللحياة قيمة، وللموت عبارة مفادها عدم العبثية؛ بل تحمل مسئولية العمل من قِبل كل كائن عاقل ويفكر.

دكتورة/ نيفين عبد الجواد

(١)

"شعاع نور"

وجهها البشوش كان يشع بهجة وسرورًا فى كل مكانٍ توجد فيه ..

كانت ابتسامتها الدالة على سعادتها وسكينتها لا تفارق وجهها ..

كانت ترى كل شيء جميلاً لأن ما بداخلها كان جميلاً بحقٍ، ونقيًا بصدق. وكانت تظن أن سعادتها وبشاشة وجهها لا تحتاج لمبررٍ، ولا تستدعى إبداء أية أسباب لأحد. وظلت على هذا الحال حتى جاء الوقت الذى اصطدمت فيه بمعرفة الحقيقة كلها، وبكل أوجهها المتناقضة على حقيقتها بلا أدنى زيف أو خداع، فأدركت حينئذٍ أن السبب الخفى وراء سعادتها الماضية كان لأنها لم تكن قد تعرفت بعد على كل جوانب الحقيقة، وأنها كانت مكتفية طوال الوقت برؤية الحقيقة من جانبٍ واحدٍ يرضيها ويسعدها ويحجبها عن رؤية ما سواه.

وبعدما رأت الكذب مزاحمًا للصدق بإصرارٍ عنيد، سعيًا للقضاء عليه ورغبة فى حجبه عن الأفق، وعندما أبصرت الحق يتلبس بالباطل، وشاهدت القاتل الذى يعبث بجسد ضحيته بلا خوف من العقاب أو خشية من الازدراء، و تأملت المنافقين والمتاجرين بكل شيء فى سبيل الوصول إلى مجدٍ شخصى وتفوقٍ جبان، أدركت حينئذٍ أن الخير والشر معًا هما الحقيقة الصادقة والصادمة على الأرض، وأنهما سيظلان متلازمين معًا وغير متفارقين ما بقيت حياة الإنسان الدنيا، وما بقيت الأرض.

وبالفعل اختفت ضحكتها الوديعة التى صاحبتها طويلاً، وزالت بشاشة وجهها المعروفة بها وسط الأهل والأصدقاء، وخفت توهج سعادتها، وانطفأ شعاع من نور كان بداخلها، لكنها مع الوقت بدأت تحاول التنقيب عنه كى تستعيده من جديد، ليس طمعًا فى استحضار نفس نشوتها السابقة وسعادتها الغامرة، بل من أجل الحفاظ على سلامة وجدانها، وتوازن نفسها، ومن أجل استبقاء ما يلزم لها من سكينة وسلام لمواصلة حياتها على نحوٍ طيب.

(٢)

"ثقب الإبرة"

نظر من ذات الفتحة الضيقة التى اعتاد أن ينظر من خلالها ليرى ما حوله من متناقضات ومشاحنات وصراعات، ورغم أن هذه الفتحة الضيقة لم تكن سوى ثقب إبرة خانق، إلا أنها كانت تمكنه من رؤية الدنيا بأسرها كما أراد هو، وكما أعدَّ نفسه لرؤيتها.

كان يظن أن الدنيا من حوله هى تلك التى كان يُطل عليها من ثقب الإبرة الضيق، وعندما تعبت عيناه من النظر من خلال هذه المساحة الضيقة، فكر أن يحاول رؤية الدنيا برحابتها بدون الاستعانة بهذه الفتحة المحدودة الأبعاد. وبالفعل من أول مرة رأى فيها الدنيا بدون ثقب الإبرة الضيق شاهدها ذات سماء بلا حدود، وأفق بلا نهاية، وأرض رحبة فسيحة، ذات جبال وسهول، ووديان وأنهار وبحار أكبر وأجمل مما كان يراه من قبل.

وبالرغم من وجود نفس المتناقضات والمشاحنات والسلبيات والشدائد والصعاب فى ذات الدنيا التى يعيش فيها ويراها كل يوم بعينيه، وبرغم عدم تغير أي منها على الإطلاق، إلا أن رؤيته لها فى إطارها الفسيح، والحيز الرحب الذى تشغله بالفعل، جعلها تبدو أمامه أصغر بكثير مما كانت عليه عندما كان يراها من خلال ثقب الإبرة الضيق.

ومع صباح يومٍ جديد، عادت زقزقات الطيور الصغيرة بعدما ظن أنها لن تعود، وعادت الأنغام العذبة الرقيقة بعد طول انقطاع. عادت الحياة وبهجتها لتشرق شمس الأمل من جديد بضوئها الساطع لينفذ عبر زجاج نافذة غرفته الصغيرة، وكأنه يصر على أن يوقظه من نومٍ ضيَّع فيه عمره هربًا من ألمٍ بلا دواء، وحُلم بلا ارتواء، وبكاءٍ بلا انقطاع.

فهبَّ من فراشه، وفتح شباك نافذته بحثًا عن الطيور المغردة، فإذا بها تطير فى السماء، ثم تهبط بالقرب منه وكأنها تلقى عليه تحية عتاب بعد طول غياب. فما كان منه إلا أن ردَّ تحية الطيور المحلقة فى السماء، بابتسامة لم ترتسم على وجهه منذ سنوات، ولم ينس بين حينٍ وآخر أن تظل عيناه متعلقة بالنظر إلى السماء متأملة اتساع الأفق الذى تختفى فى رحابته كل صعاب الحياة.

(٣)

"الاستيقاظ قرار"

قرر أن يغمض عينيه بإرادته الحرة ليس فقط أثناء ساعات النوم، ولكن أيضًا خلال فترات الصحو والاستيقاظ. قرر أن يَصُمَّ أذنيه حتى لا يسمع أى شيء وكل شيء. وعندما تساءل البعض عن سر صمته الطويل أجابهم جارٌ له بدهشةٍ وتعجب: "كيف لمن لا يرى ولا يسمع أن يتكلم معكم أو يجيبكم على أى سؤال؟!" فعاودوا سؤلهم مرة أخرى متعجبين هذه المرة من سر إغماضه لعينيه وصمه لأذنيه بإرادته الحرة، وهو الذى كان من الممكن أن يستمتع بنعمتى البصر والسمع، ومن ثم بنعمة الكلام والتحدث.

فردَّ عليهم جارٌ آخر له بحسرة تملأ شفتيه قائلاً: "إنه اختار أن يستعمل إرادته الحرة فى تعطيل عمل كل جارحة من جوارحه، وفى قبر كل مقوم لحياته وهو ما زال على قيد الحياة، وإن كان هذا عجيبًا، فالأعجب منه حقًا هو اهتمامكم أنتم بأمره، وانشغالكم بحاله، رغم اختياره الحر أن يكون شأنه شأن الدواب رافضًا تكريم الخالق له بحواس وجوارح لو استخدمها وأحسن استخدامها لارتقى لمنزلة الإنسان الحر بحق، ولم يهبط لمرتبة الأنعام الصم البكم الذين لا يعقلون، والتى اختارها مكانةً له عن عمدٍ وإصرار، فاستحقها أن تبقى عنوانًا له لرفضه المستمر عدم التخلى عنها، أو مجرد التفكير فى التخلص منها."

(٤)

"فاضل"

بين عشية وضحاها استيقظ "فاضل" ليجد نفسه بمفرده على متن المركب، الذى استقله هو وجميع أفراد أسرته ليعبر بهم إلى الشاطىء الآخر البعيد جدًا. كان جميع من بالمركب يظنون أن انتقالهم إلى ذلك الشاطىء البعيد فى ذلك البلد الغريب عنهم سينقلهم إلى حياة أفضل من حياتهم، التى امتلأت بالمعاناة فى وطنهم بعدما عمته الفوضى، واحتلت الاضطرابات جميع أنحائه. ولم يكن فى حسبان "فاضل"، بعد كل تلك الصعوبات التى كابدها من أجل النجاح فى الوصول إلى الشاطىء الآخر، تمهيدًا لبدء حياة جديدة له ولأسرته، أنه سيكون قد تم اقتلاعه من وطنه الذى عاش فيه ما مضى من عمره، واجتثاثه من أرضه التى تكحلت عيناه بترابها، ، بل أيضًا سيكون مع موعدٍ لفقدان جميع أفراد أسرته وكل أبناء عائلته إلى الأبد.

وفى البلد الغريب انتبه "فاضل" إلى أنه قد أصبح وحيدًا، وأن عليه أن يبدأ رحلته مع الغربة والاغتراب بلا أهل، وبلا أصدقاء، وبلا مأوى، وبلا هوية، وبلا أرضٍ يقف عليها بثبات، ولكنه أصر رغم كل ذلك الفقدان على الاستمرار فى الحياة متحديًا كل الصعاب، ومجتازًا كل الآلام، لعله فى يومٍ من الأيام يلتقى بمن سيكونون له أهلاً وأصدقاء، ولعله مع الوقت يحمل من جديد لقب مواطن فى ذلك البلد الغريب، فيجد فيه معنى الوطن، أويحقق على أرضه ما تبقى له من آمال.

(٥)

"مِن بعيد"

عندما لمح الصورة من بعيدٍ مع الآخرين، لم ينصرف مثلهم بعدما أعجبتهم، بل ظل واقفًا أمامها محاولاً تفحصها وإمعان النظر فيها. وكان كلما دقَّق النظر فيها، وجد نفسه يحاول الاقتراب منها أكثر فأكثر، وكلما كان يقترب منها للبحث عن جماليات أكثر، كان يلحظ ما بها من عيوب فيقل إعجابه بها، ويفتر حماسه لها، وينحسر نظره شيئًا فشيئًا عن المزيد من تأملها.

ومع طول الاقتراب وكثرة التفحص والاستغراق، تناقص الانبهار حتى تلاشى ما كان من إعجاب صفدَّ قدميه للوقوف أمامها لفتراتٍ طويلة بلا حراك. ولم يكن منه بعد ذلك إلا أن قرَّر الانصراف ليلحق بالآخرين الذين غادروا قبله، مكتفين بما جذبهم إليها من جمال ظاهر غير متفحصين إياه.

وكان كلما تذكرها بعد ذلك لا يستدعى فى خاطره ما بهره فيها من جمالٍ لفت نظره وشدَّ انتباهه إليها، بل كان يستحضر من ذاكرته ما اكتشفه فيها من عيوبٍ نفرته من الاستزادة من القرب منها، وحجبت عنه ما حوته من جمال كان منبهرًا به لحظة أن رآها.

(٦)

"عبد السلام"

خرج على أهل بلدته الفقراء الضعفاء داعيًا إياهم أن يتمسكوا بأخلاق الدين لا أن يتشبثوا بظاهر عباداته فقط، وألا يفسحوا المجال لدخيل أو عميل يمزق وحدتهم، ويشتت شملهم، ويفرق جمعهم، ويحرمهم أمنهم، ويُفقدهم أمانهم. وأطال فى نصحه لهم بعدم الإساءة لدينهم وهم لا يشعرون، خاصة وأنهم فى هذه الحالة من الضعف والتخلف أحيانًا، ومن العنف والتعصب أحيانًا أخرى.

وبينما هم ينصتون إليه، وهو عمدة بلدتهم وشيخها الكبيرالذى يهابه السادة، ويوقره العوام، والذى لا مانع من أن يرتدى ثوب فقيه القريه ومفتيها من آنٍ لآخر، صاح أحد الأهالى من الفقراء مقاطعًا إياه -على غير العادة- وسائلاً إياه: "والعدل يا عمدة ... أليس هو أيضًا ما أمربه الدين ليعيش الناس سويًا فى أمانٍ وسلام؟!"

ولم يكن يخطر ببال العمدة أن يقاطعه أحد الأهالى ذات يوم، أو أن يفسد عليه خطبته العصماء التى اعتاد أن يلقيها على أهل بلدته وهو وسط حراسه بينما الجميع يلفهم الصمت المصحوب بوجوم الخاضعين. ومع تلك المفاجأة غير المتوقعة كان العمدة سريع البديهة، فلم يكد أن ينتهى السؤال الاستنكارى الذى أُلقِى عليه على الملأ، حتى بادر العمدة سائله المرتاب بإلباسه

الاتهام الشائع فى البلدة آنذاك قائلاً له: "إنت شاكلك كده باين عليك إنك من الجماعة إياهم ... أنا مش لسه حالاً باقول لكم التعصب والعنف والتشدد ... اهو هما دول اللى شوهوا صورة الدين". وما أن أنهى العمدة الفقيه اتهامه لسائله، حتى أخذ الأهالى جميعًا يرددون فى أصوات صاخبة ومتداخلة لتواليها السريع وتعاقبها المندفع: "اسكت يا واد يا عبد السلام ... ما تقاطعش العمدة".

أمره الجميع بالسكوت وعدم الكلام بالمرة فيما بعد، مستنكرين عليه ما طرحه من سؤال، وما أحدثه من بلبلة، رغم علمهم الوثيق أن ذلك السائل ليس سوى (عبد السلام عادل) ابن بلدتهم الفقير، الذى تلقى قسطًا يسيرًا من التعليم، والذى لا ينتمى للجماعة إياهم على الإطلاق، ولكن كل ما هنالك أنه أراد فقط أن يلفت الانتباه إلى فضيلة عظمى من الفضائل الهامة التى غابت عن الأذهان لتغييبها عن الإعمال رغم كثرة الأقوال.

(٧)

"صِدق الرحم"

ارتدت ملابسها المعتادة واستعدت للخروج من منزلها لأداء صلاة الجمعة فى المسجد القريب الذى لم تنقطع عن الصلاة فيه لسنوات طويلة. وفور انتهائها من صلاتها قررت زيارة أختها الوحيدة التى تسكن بالقرب منها فى العقار المقابل لها، ليس فقط لكى تسأل عليها فى مرضها البسيط الذى ألم بها، ولكن أيضًا لتقوم بواجبات صلة الرحم المفروضة عليها فرضًا. وهى ذات الصلة بين الأرحام التى تقطعت أوصالها منذ سنوات لأسباب ظاهرها ادعاءات يلقيها كل طرف على الآخر، بينما باطنها الحقيقي هو تبدل أحوال القلوب، وجفاف المشاعر التى تحولت من مشاعر تفيض بالتسامح والعطاء بلا مقابل إلى مشاعر متأججة بالغيرة، وملتهبة بالغل والحقد والتربص للأخطاء والزلات بلا نية للغفران، أو عزم على النسيان.

لقد كانت صلة الرحم المراد وصلها بين الأختين الشقيقتين مفروضة على كلٍ منهما فرضًا، فرضته إحداهما على نفسها بشدة رغبة منها فى أن تُرى كواحدة من هؤلاء الملتزمات بالدين طاعةً لظاهر أوامره وتجنبًا لظاهر نواهيه دون أية رغبة منها فى التفقه فى علة تلك الأوامر والنواهى، أو فى تدبر الغرض الحقيقي من وراء فرضها. لذلك كانت تلك الزيارة مصطنعة وبلا طعم لكليهما، ومع ذلك استمرت تلك الصلة الخادعة لمن يراها على ظاهر حالها من الوصل المتقطع، محتفظة بما تحمله من جفاءٍ دفين لحين تنقية القلوب مما تمكَّن منها من عطب، ولحين علاجها مما أصابها من عِلل.

(٨)

"الكتاب والميزان"

كان يسير فى الطرقات حاملاً الكتاب وممسكًا بالميزان، واعتاد الناس على رؤيته هكذا دون أن يتخلى عن أى منهما. ولشدة وقاره وفرط هيبته لم يجرؤ أحد من جيرانه على سؤاله عن سر تمسكه بحمل الكتاب والميزان معًا فى كل خطوة يخطوها.

وفى يومٍ من الأيام كان واقفًا منتظرًا دوره لشراء بعض احتياجاته، وكان بجواره شاب فى مقتبل العمر اعتاد على رؤيته مثل بقية الجيران فى صحبة الكتاب والميزان. وبحماس الشباب واندفاعه وجرأته، سأل الشاب الشيخ الوقور عن السر الذى حار فيه الكثيرون حول سبب تمسكه دائمًا بالكتاب والميزان جنبًا إلى جنب. وما أن أتم سؤاله للشيخ الجليل، حتى أجابه قائلاً: "إن الكتاب الذى يمسك به بإحدى يديه هو المعين الذى يستقى منه العلم ليروى به ظمأ عقله، والذى بدونه سيكون مصيره هو الغرق مع من ابتلعتهم دوامات الوهم والشك، وأجهزت عليهم متاهات الجهل، أما الميزان الذى يتشبث بالإمساك به بيده الأخرى فهو الأداة التى يقيم بواسطتها الوزن بالقسط، والحكم بين الناس بالعدل، والذى بدونه لهلك الضعفاء تحت أقدام الطغاة من الأقوياء، والذى لولاه لكان مصير البشر هو الإفناء الجماعى، للحاق بالأمم الخالية التى بادت مساكنهم، وتحطمت عروش جبابرتهم، واختفت كل آثارهم.

(٩)

"جامع القمامة"

فى مساء كل يوم كان يلقى بالقمامة من شرفة شقته العالية، وفى صباح اليوم التالى كان يأتى جامع القمامة ليحملها من فوق الأرض، ويذهب بها بعيدًا، فتختفى ما تسببه من روائح كريهة. وتكررت تلك الدورة على مدار أيام وشهور وسنوات عديدة دون أن يعدل أحدهما عن عادته، أو أن يتوقف الآخر عن أداء عمله وإنجاز مهمته.

وفى يوم من الأيام تبدل حال صاحب الشقة العالية، ولم يعد لديه أية أموال ينفق منها، حتى أن الضريبة التى تبلغ عدة جنيهات، والتى كان يدفعها رغمًا عنه للدولة كى يحصل عليها جامع القمامة نظيرعمله هذا، لم يعد قادرًا على سدادها بعد تراكمها عليه، ومن ثم توقف جامع القمامة عن تنظيف المكان الذى كان صاحب الشقة وساكن الشرفة العلوية يداوم على إلقاء قمامته ومخلفاته فيه. وبمرورالأيام تراكمت القمامة أمام البناية وأيقن ملقى القمامة أن أحدًا لن يأتى بأى حال من الأحوال ليرفع عن الأرض أكوام القمامة المتراكمة، والتى يعلم الجميع من قذف بها على الأرض. وبرغم أن صاحب الشقة العلوية تخلى عن عليائه، وقرر عدم إلقاء المزيد من القمامة، إلا أن ذلك لم يكن كافيًا، إذ دفعه جيرانه دفعًا إلى النزول من طابقه العلوى ليجمع بنفسه قمامته التى ألقاها على مدارالأيام والشهور السابقة.

وعندئذٍ أيقن ساكن الشرفة العلوية أنه لولا ما يدفعه من مال لجامع القمامة، لما أتى لينظف له المكان، ولما قَبِل أن يمتهن هذه المهنة ويمارس ذلك العمل. وها هو صاحب الشقة العلوية الذى اعتاد أن يلقى القمامة كل مساء بلا اكتراث قد اضطر فى يوم من الأيام أن ينزل بنفسه من طابقه العلوى ليجمع كل ما ألقاه من شرفته باستعلاء واستهتار، ليس فقط رغمًا عن أنفه الأبية، بل أيضًا بلا أى مقابل ولو كان زهيدًا.

(١٠)

"فن التبليغ"

قررت أن تكون هى المبلِّغة لجميع المصليات بقواعد الاصطفاف الصحيح حتى تنال كل واحدة منهن الأجر والثواب. ولأن الله لا ينظر إلى الصف الأعوج ظلت تراقب كل المصليات لتعرف من منهن كانت السبب فى اعوجاج الصف، لتخبرها بخطأها بعد الصلاة. ولما اكتشفت أن إحدى المصليات لا تقف باستواء كامل فى الصف، وأنها هى التى تتسبب فى اعوجاجه فى كل مرة، لم تتردد فى أن تذهب إليها بعد كل صلاة لتخبرها بخطأها الفادح بصوت عالٍ أمام الجميع، وكأنها تعنفها مثلما يُعنف الأستاذ الكبير تلميذه الصغير لعدم انضباطه، أو بسبب ارتكابه خطأً جسيمًا وجب عليه تصحيحه. ومع إصرار المُبلِّغة الراشدة، التى قامت بدور كلٍ من المعلمة الناصحة والمراقبة المعنفة فى لجنة الامتحان فى آنٍ واحد، على إلزام المصلية المتسببة فى اعوجاج الصف بطاعتها غصبًا عنها، والامتثال لأمرها رغمًا عن إرادتها، لم يكن من المصلية المخطئة إلا أن رفضت تنفيذ ما أمرتها به كِبرًا وعنادًا ونفورًا منها ومن طريقتها فى النصح.

لماذا أرادت المبلِّغة أن تكون مراقبة أيضًا، ولم تكتفِ برسالة التبليغ؟

ولماذا لم تراعِ الرفق واللين فى تبليغ رسالتها دون إصرار وإلحاح منها على رؤية الامتثال لما تدعو إليه من واجبات اعتقدت أنها ليست سوى أوامر فرضتها هى على الآخرين وكأنها أوامر عسكرية صارمة؟

لماذا مارست تلك المصلية الاستعلاء على غيرها من المصليات برغم أنهن كلهن سواء فى الصلاة؟ ولماذا نمارس نحن نفس الاستعلاء على بعضنا البعض فى كثيرٍ من الأحيان باسم الدين والتدين ولا نستطيع أن نفهم قيمة الحرية، أو أن ندرك معنى الإرادة الحرة؟

(١١)

"صفحة بيضاء"

تأمل الصفحة البيضاء التى أعطيت له ليرسم عليها إحدى لوحاته، وقبل أن يمسك بريشته أخذ يسترجع أيام حياته، وكيف أتى إلى الدنيا بصفحة بيضاء على الفطرة سطر فيها الزمان سطورًا بيضاء وأخرى سوداء، وثالثة ملونة كان هو مَن نَسَجَ كلماتِها، وكتَب حروفها بنفسه.

وقال لنفسه: " لقد كانت هذه الصفحة بيضاء عندما كانت فارغة، وها هى الآن وقد امتلأت بالسطور والألوان، لا أتمنى لها سوى أن تعود بيضاء كما كانت لتظل ناصعة برَّاقة."

ولكن كيف له الآن أن ينقيها مما شوهها من خطوط؟

هل له أن يعيد رسمها من جديد بعد مضى كل تلك السنوات؟

ولمَ لا؟! فهو لم يزل قادرًا على الرسم، ويستطيع فى أى وقتٍ أن يمحو الخطوط القبيحة ويستبدلها بأخرى جميلة .. إذا أراد.

(١٢)

"قسوة وتحمل"

كاد اللجام أن يجهزعليه، ومع ذلك أصر صاحب العربة أن يجبره على عدم التوقف عن الركض بسرعة. حاول أن يدير رأسه نحوه فى محاولة أخيرة لاستعطافه فإذا به يضربه بالسوط على ظهره بلا رحمة.

وبعد تلقيه عدة ضربات موجعة على ظهره، لم يعد الفرس يقوى لا على جر العربة، ولا على مجرد الوقوف على قدميه. فما كان منه إلا الاستسلام للسقوط على الأرض ليهوِي صريعًا فى الحال. وقتها تنازل صاحب العربة عن قراره بالالتصاق بكرسي العربة، وعزم بلا تردد على النزول من فوقه لإلقاء نظرة سريعة وأخيرة على فرسه، الذى أنهكه كثيرًا فى جر عربته ليبقى هو مستريحًا بلا أدنى مجهود سوى جلد حصانه الضعيف بسوطه الغليظ من وقتٍ لآخر.

لم يحاول صاحب العربة قط أن يفحص فرسه الذى لازمه لسنوات طويلة، ولم ينشغل من قبل بالاقتراب منه أومحاولة التقرب إليه من باب الشفقة والرحمة، قبل أن يكون من باب المنفعة والغلبة، لذلك لم يدرك قط أن حصانه قد نحل جسده، وضعفت قواه، وأصابه الوهن، وقارب على مفارقة الحياة.

وفور تأكده من موت فرسه النحيل، همَّ بدفنه دون أدنى شعور بالذنب نحوه، بل سارع أيضًا فى اليوم التالى بشراء فرسٍ جديد ليقوم بنفس مهمة الفرس القديم، وانتهى من تجديد عربته المطلوب من الفرس الجديد ألا يجرها إلا وصاحبها جالسٌ فوق كرسيها، وقام بتهذيب سوطها ليكون أكثر إيلامًا لأى فرسٍ جديد، وأعلى صوتًا لكل من هو مضطرٌ لإفساح الطريق.

(١٣)

"سيادة المدير"

فى اليوم الخمسين لتوليه إدارة مجموعة شركات ضخمة لها من الفروع خمسون ومائة منتشرة فى جميع أنحاء البلاد، وافته المنية فجأة وبدون أية مقدمات، وكان ذلك بعدما زار الفرع رقم ثلاثين من فروع الشركة. لقد مات قبل أن يزور بقية فروع الشركة التى خطَّط أن يزورها جميعًا عدة مرات دون سابق إخطار للعاملين بها، كى يرى سير العمل بنفسه ومدى تقدمه.

ومع كل زيارة، كان هناك الضبط المشين للمخطئين، والذى يدعو بقية العاملين والموظفين إلى الانضباط والالتزام فى حضرة المدير الذى كان يؤمن أن تلك الزيارات المباغتة كفيلة وحدها بالقضاء على إهمال المهملين، ومنع تسيب المتسيبين، ومن ثم محو فساد المفسدين. ولأن هذه الزيارات كانت ترتبط بشخصه الكريم، فقد انتهى أثرها بموته السريع، الذى عاد بعده كل شيء كما كان بلا حساب أو عقاب. فماذا لو كان ذلك المدير قد وضع قانونًا صارم التنفيذ يسرى على الجميع بغض النظر عن مرور جنابه أو تخلفه عن المرور؟! قانونًا يحاسب كل مخطئ، ويمنح رقابة ذاتية على كل عامل وموظف قبل أن تكون الرقابة عليه فوقية. قانونًا يمنع الفساد ويحاربه أيًا من كان مرتكبه. لو فعل ذلك لضمنت شركاته تقدم سير العمل بها مع تبدل الأشخاص، ولاستطاع أن يكون هو من أسس لإدارة حقيقية تبقى على مر الأيام، وتعتمد على سيادة القانون لا على مرور سيادة المدير.

(١٤)

"نصف صديق"

"خير صديقٍ فى الزمان كتاب" .. مقولة كانت تتردد على مسامعه كثيرًا ولم يكن يُلقِى لها بالاً. وعندما تقدم به العمر وانفضَّ الناس من حوله، احتاج لصديق مخلص، ففكر فى الاستعانة بالكتب لعل قراءته لها تكون خير خليلٍ له فيما تبقى من عمره.

وبعد مصاحبته للعديد من الكتب لوقتٍ طويل قارئًا لها ومستمعًا لحديثها، أدرك أن الكتاب لم يكن صديقًا كاملاً، وإنما كان نصف صديق فقط، فهو دائمًا يتحدث إليه ولا يستمع له قط. لذا عزم على إكمال تلك الصداقة الناقصة بالعثور على من يستمع إليه مثلما وجد من تحدث إليه ودأب على الإنصات له.

وما أن أغلق كتابًا كان قد أنهى قراءته مستمتعًا بحديث صاحبه ومؤلفه إليه، حتى اكتشف أنه قد آن الأوان لكى يلتقى بالنصف الثانى لصديقه الجديد، والذى عثر عليه أخيرًا ليتم كماله ويصبح صديقًا كاملاً. فأمسك لأول مرة بالقلم ليكتب به هذه المرة كل ما يجول فى صدره من مشاعر ويتبادر إلى ذهنه من أفكار، وكأنه يقول لقلمه: "هلم قلمى إليّ ... ها قد حان الوقت لكى تتحدث عن صاحبك ناقلاً كلماته لكل قارئ بعدما أمضى زمنًا طويلاً فى قراءة ما كتبته أقلامٌ أخرى غيرك".

(١٥)

"اختباء"

اشترى عم "أسعد" بقالته الأسبوعية من الدكان الصغير الذى يقع بجوار منزله، والذى اعتاد أن يشترى منه معظم احتياجاته على مدار سنوات عديدة. وفى هذا اليوم لفت نظره أن عم "سعيد" صاحب دكان البقالة لم يره أبدًا سعيدًا، بل إنه لم يلمحه مبتسمًا ذات يومٍ لأي سبب من الأسباب، برغم أن اسمه "سعيد"!! وبعد استغراقه فى التفكير عن سبب عدم سعادة عم "سعيد"، نظر إلى الأكياس التى امتلأت بمشترياته، فلفت نظره أنها أكياس سوداء قاتمة تمنع أى أحد من رؤية ما بداخلها من أشياء.

وما أن وصل عم "أسعد" إلى البناية التى تضم شقته، وشرع فى صعود السلالم التى توصله إليها، حتى تبين له أن جميع أبواب الشقق التى كانت فيما مضى تحوى نوافذ يطلق عليها (شرَّاعات) قد تحولت جميعها بمرور الزمن إلى أبواب مصمتة بلا أية فتحات سوى عيون سحرية من الصعب تمييزها من الخارج، ولا يستغنى عنها صاحب الشقة ليتعرف على كل قادمٍ له دون أن يشعر الطارق بوجوده خلف الباب، فيستطيع أن يتفحصه فى صمت ليقرر ما إذا كان سيفتح له الباب ويقبله زائرًا له، أم سيتركه يطرقه حتى ينصرف.

فتبادر إلى ذهن عم "أسعد" أن السبب وراء عدم سعادة الجميع بما فيهم عم "سعيد" ربما يرجع للخوف من كل المحيطين وعدم الأنس بهم، والذى أفضى بدوره إلى تحبيذ الاختباء خلف الأبواب المغلقة، وإلى تفضيل ستر المشتروات فى أكياس معتمة.

(١٦)

"رحيل"

اخترقت الرصاصة رأسها، وسالت دماؤها أنهارًا حتى غطت كل جسدها، فسقطت على الأرض جثة هامدة، ثم لفظت آخر أنفاسها فى الحياة بينما ظلت عيناها مفتوحتين تنظران صوب السماء الرمادية المليئة بالسحب الداكنة.

لم تعد فى جسدها النحيل أية قدرة تمكنها من الكلام لآخر مرة. وظلت نظرتها نحو السماء ترافق جسدها المحمول على الأكتاف فى محاولة أخيرة لإنقاذها، ولكن بلا جدوى. أعلن الأطباء نبأ رحيلها عن الدنيا بلا عودة، وانتقالها لعالم آخر تنتظر فيه قاتلها ليقضى دينه لها مجيبًا على سؤلها: "بأي ذنب قتلها؟!"

رحلت تاركة دنيا امتلأت بضجيج الفاسدين وآفات المفسدين، وأضاف رحيلها نحيبًا جديدًا فوق جبال النحيب، وجرحًا جديدًا وسط جروح لم تلتئم منذ سنوات.

رحلت تاركة نظرتها خالدة فى أذهان كل من رأوها، لتبقى ذكرى تُذكِّر كل من بقى على قيد الحياة أنه فى يومٍ ما ربما يواجه نفس مصيرها، ويتلقى فى رأسه مثلها رصاصة غادرة مثل تلك التى استهدفت رأسها وثقبت جمجمتها.

(١٧)

"مِن داخل القصر"

"ما أجمل قصرها وما أروع منظره .. إنه لا يماثله أي قصر من قصور الدنيا الفاخرة .. فيا ليت صاحبته تدعنى أدخله."

تلك كانت أمنية "جميلة"، الشابة التى اعتادت أن تفتح باب منزلها للسائلين وقتما طرقوه تنفيذًا لوصية والدتها ومن قبلها جدتها، ومع ذلك فقد حُرمت من دخول أفخم القصور التى رأتها فى حياتها.

ولم تنتظر "جميلة" طويلاً حتى جاءتها الإجابة على لسان صاحبة القصر المهيب، والتى ما كادت أن تراها واقفة على باب القصر حتى أسرعت لتفتح لها بابه. وبالفعل فُتح باب القصر الذى تمنت "جميلة" دخوله، وما أن رأت "جميلة" صاحبته حتى صافحتها بحرارة شديدة مثلما اعتادت أن تصافحها كلما طرقت باب منزلها الذى كانت تعيش فيه فى الدنيا، وطال الحديث بينهما لكن صاحبة القصر لم تسمح لـ "جميلة" بالدخول فى البداية، ولما سألتها "جميلة" عن سبب ذلك المنع، أجابتها بأنها هى الأخرى قد اعتادت أن تطرق باب منزلها من حين لآخر فى الدنيا، ورغم حسن استقبال "جميلة" لها فى كل مرة إلا أنها لم تكن تعرض عليها دخول منزلها قط، وكانت تكتفى فقط بالترحاب بها وهى واقفة على باب المنزل دون التفكير فى دعوتها للدخول.

وقتها شعرت "جميلة" بالخجل، وأدركت أنها ما مُنِعت من دخول هذا القصر المنيف فى الجنة، والذى أصبحت تملكه زائرة منزلها السائلة لها فى الدنيا، إلا لأنها ضنَّت على صاحبته بدخول منزلها البسيط من قبل. أما صاحبة القصر التى لم تعد محتاجة قط لـ"جميلة"، فقد تذكرت أن السيدة "جميلة" كانت دومًا كريمة معها فى كل مرة تطرق فيها باب منزلها، وكانت لا تتركها تغادر إلا وهى مبتسمة وراضية، لذا أبت إلا أن تكون على نفس القدر من كرم "جميلة" معها، وألا تتركها تغادرها وهى غير راضية، فابتسمت لها على الفور ابتسامة صافية، وسمحت لها بدخول قصرها المنيف تحقيقًا لأمنيتها ورغبة فى إسعادها.

(١٨)

"بريق"

صفق لها الجميع بحرارة بعد مداخلتها القوية والجذابة والموضوعية، وكانت وقتها ما زالت فى عز شبابها وجمالها وأناقتها. وكان تصفيق الناس لها كفيلاً بأن يمس كيانها ليرتج لثوانٍ قليلةٍ وكافيةٍ لتفكر فيما حدث لها، ولكن اضطرارها للانصراف مبكرًا للحاق بالقطار لم يسمح لها بسماع تعليق الحضور على ما قالته وجهًا لوجه، فلم تكتمل الصورة وبريقها المبهر فى ذهنها.

وبينما هى فى طريقها لمحطة القطار سألت نفسها: "لماذا صفق لها الحضور على ما قالته؟" وتبادر لذهنها فكرة أن تكون مستحقة للوقوف أمام الجموع لتتحدث، فينصت لها الجميع، ثم يصفقون. وامتلأت بصوت خفى من أعماقها يحثها على التأنى وعدم التسرع طلبًا للشهرة التى كثيرًا ما راودتها وداعبت خيالها وهى طفلة، عندما كانت تظن أنها تمتلك مواهب فنية فطرية لن تحتاج سوى أن تصقلها ببعض التدريبات. وتذكرت كذلك محاولتها السابقة للوقوف أمام ميكروفون الإذاعة فى اختبارات للمذيعين الجدد، ووصولها للتصفيات النهائية، ثم انتهاء حلمها آنذاك عند هذا الحد.

لذا لم يكن أمامها وهى تسترجع حلمها القديم إلا أن تصمت قليلاً للتفكير فيما تريده لمستقبلها، وما يمكن أن يحدث لها إذا طرقت الشهرة بابها الذى أغلقته على نفسها منذ سنوات. كان ينتابها شعور بالخوف من الشهرة على

الرغم من أنها كانت فى وقت من الأوقات تخطو نحوها بلا وعى أو عن عمد. وكان يغمرها أيضًا إحساس بالخجل من نفسها التى كانت وقتها على حال من التخبط لم تكن تحب أن تستمر عليه، ليس فقط حالها الظاهرى المتعلق بالستر والكشف، أو بالحشمة والتبرج، أو بالحجاب والسفور؛ ولكن أيضًا حالها الباطنى المرتبط بحيرة أمام أمور كثيرة، وتخبط تجاه مسائل عديدة لم تكن بعد قد استقرت بشأنها وشأن فهمها.

(١٩)

"صورة مصطنعة"

نادى على الجميع من أجل التجمع استعدادًا لالتقاط صورة للذكرى.

أية ذكرى؟!

إنها ذكرى حدث هام يحتاج المشاركون فيه إلى تخليده، أو بالأحرى إلى تخليد اشتراكهم فيه لربما يكتسبون من أهميته أهمية لهم طالما كانوا يبحثون عنها. وبالفعل اقترب الجميع من بعضهم البعض للدخول فى كادر (إطار) الصورة الفوتوغرافية. وظل هو وحده يرقبهم من بعيد دون الاقتراب منهم، وأخذ يتأمل ابتساماتهم المصطنعة تطبيقًا لمبدأ التصوير المعروف "اضحك عشان الصورة تطلع حلوة". واستمر هو واقفًا فى مكانه متعجبًا من اهتمامهم الجم بالتقاط الصور التذكارية واحدة تلو الأخرى، ومراقبًا لحركاتهم ليبدو كل منهم فى أسعد أوقات حياته وأفضل حالاته دون اصطناع.

كان وحده يرى أن الأحداث الهامة إنما تُحفر ذكراها فى الذاكرة لصدقها وقيمتها، وتخليدها الحقيقى يكون من خلال التقاط صور طبيعية غير مُفتعلة، أما الصور المصطنعة والمُجهَّز لكل حركات أفرادها مسبقًا، والمليئة بابتسامات سبق الإعداد لها لتبدو وكأنها ارتسمت على الوجوه بصورة تلقائية، فهى صور مزيفة وغير طبيعية وبالتالى لن تتسم يومًا بالصدق، وإن كانت ذات أهمية قصوى للكثيرين، وفائدة عظمى للواهمين.

(٢٠)

"انحناء"

وقف رافعًا رأسه ناظرًا إلى الأفق، بينما أحنى كل من حوله رءوسهم مفضلين النظر أسفل أقدامهم. ومكث هكذا في هذا الوضع المستقيم، بينما لم يستطع أي منهم أن يرفع رأسه لأعلى. ولما التفت حوله وأمعن النظر، اكتشف أنه لا يوجد أحد حوله يمكنه التحدث إليه، فأيقن أن عليه الاختيار بين أمرين لا ثالث لهما، أحدهما: أن يعيش وحيدًا محتفظًا باستقامته ونظرته للأفق اللانهائي، وثانيهما: أن يأنس بمن حوله وهو مطأطئ الرأس لا يرى سوى قدميه وحانيًا ظهره.

وفي كل مرة كان يملّ فيها من وحدته، وتُسول له نفسه أن يطأطئ رأسه أو أن يحني ظهره ولو لمرة واحدة فقط، إذا بنفسه تبادر بطرح سؤالها عليه: "هل إذا أحنيت رأسك مرة واحدة ستتمكن ثانية من العودة لاستقامتك، وتأملك للأفق اللانهائي، أم ستظل منحنيًا بلا حراك بقية حياتك مكتفيًا بالأنس بمن حولك ومستوحشًا من عدم قدرتك على رؤية ما أمامك برأسٍ مرفوعة تحمل عقلاً مستنيرًا يأبى الانحناء حتى لو انحنى الجسد يومًا من فرط التعب والإنهاك؟"

(٢١)

"اثنان فى واحد"

تلازم وجودهما فى حياتها وكأنهما توأمان. وكان لكلٍ منهما ما يميزه عن الآخرين جميعًا، ويجعلها تلتفت إلى شخصه وشخصيته فتفكر فيه مليًا، تارة بإعجاب، وتارة أخرى بانتقاد. كان أحدهما حنون القلب رقيق الأحاسيس متدفق المشاعر وسريع التعبير عنها بلطف، بينما الآخر كان عميق الفكر قوي الحجة واسع الأفق وغزير العلم.

كانت هى فى أوقات ضعفها الإنسانى تحتاج إلى القلب الذى يضمها بحنان فلا تشعر بين أحضانه بالغربة أو الاغتراب. وكانت فى لحظات توهجها الفكرى لا يجذبها سوى العقل الناضج المفكر الذى يستوعب أفكارها الثورية وغير التقليدية، ويجيب على أسئلتها غير المألوفة، فيحتوى عقلها المتمرد إلى أن تسكن ثورته ويعود إلى سكينته.

وظل الاثنان يزاحمان بعضهما البعض فى حياتها لفترة طويلة دون أي جديد، وظلت هى فى كل مرة تنجذب فيها لقلب الأول، تفتقد بعد ذلك وجود العقل المفكر، ومع كل مرة يحتويها ذلك العقل المفكر الذى تحتاج إليه داعمًا لها على مدار طريقها الطويل، تحن بعد قليل إلى صاحب القلب الحنون، دون جدوى من اجتماعهما سويًا فى رجلٍ واحدٍ يضمها بين ذراعيه دون قسوة، ويلم شعثها إذا تشتت تفكيرها.

(٢٢)

"حُكم القريب"

فى قريةٍ صغيرة سيطرعليها المحتل الأجنبى بجيوشه الجرارة وأسلحته الفتاكة تعرض الأهالى المسالمون للظلم والتعسف والقهر، فكان لابد من بزوغ فجر المقاومة، ورفض استمرار الخنوع تحت أقدام من لا يرحم. ومع اندلاع شرارة المقاومة الواحدة تلو الأخرى، انطلقت الجماهير الغاضبة فى وثبة صاخبة تصحبها حالة من التمرد والسخط قلما قامت بها مندفعة كالريح العاصف بلا هوادة. وكانت تلك هى بداية النضال للتخلص من مغتصب البلاد وثرواتها، ومقدمة قوية لإجبار جيوشه على الرحيل، وإرغام جنوده على الجلاء عن بلادٍ لولا ما دفعته من دماء أبطالها الأحرار لما كانت قد تحررت حتى الآن.

وبعد مضى ما يزيد على مائتى عام من مقاومة أهالى هذه القرية الصغيرة، شهدت البلاد هبَّة جديدة للجماهير لتعلن رفضها ظلم واستبداد حاكمها الذى لم يكن هذه المرة محتلاً أجنبيًا، بل كان واحدًا من أبناء قرية أخرى صغيرة من قرى البلاد، التى أصبح قدرها أن تتخلص من الاحتلال الغاصب لتعانى بعد ذلك من الاستبداد الفاتك السالب للثروات والمنهك للقوَى.

(٢٣)

"طِيب المغادرة"

فى شموخ البسطاء وعزة الأتقياء وطهارة الأنقياء، عاش بين الناس إلى أن غادر الحياة الدنيا تاركًا ابتسامته الرقيقة تذكارًا لكل من تعامل معه وأحبه. ومثلما كان صوته منخفضًا طوال حياته، كان رحيله أيضًا بلا ضوضاء وبدون صخب.

وعلى الرغم من كون الرحيل واحدًا فى معناه ومضمونه، إلا أنه لكلٍ منا طريقته فى الرحيل، والتى قدِّرت له لينفذها بوعي كامل، أو بدون أدنى التفات. ومع انطفاء الأضواء، وانقشاع ظلمة الليل، وتتابع الأيام، وتعاقب السنون، ينسى الناس وتلهيهم الدنيا وما فيها ومن فيها عمَّن رحل ومضى، ولا تبقى فى الأذهان سوى الذكريات التى يتم استحضارها من وقتٍ لآخر. فبعد أن كان الإنسان حاضرًا ويمكن استدعاؤه فى أي وقت للمثول أمامنا حيًا يُرزَق، يأتى الموت بلا استئذان فى أحيان كثيرة ليقضى عليه وعلى حياته، ومن ثمَّ يختفى الجسد الذى كان مفعمًا بالحيوية والقوة ويفنى وكأنه لم يكن شيئًا من قبل.

ولو كانت تلك هى النهاية لكل حياة على الأرض بما فيها حياة البشر، فلمَ إذن وُجدت الحياة من الأساس؟ ولماذا كل ما هو حسن له نقيضه الذي يجتمع معه ولا يفارقه؟ ولماذا هذا التزاوج الذى يحقق التكامل رغم ما يعتريه من تنافر فى بعض الأحيان؟ وهل العبث يستلزم كل تلك الدقة وكل هذا الانسجام؟ أم

أنها رحلة الإنسان مع الغيب، تصورًا وتفكرًا وتأملاً وأملاً ويقينًا وعلمًا، لتكون حياته على الأرض قوامها العمل الذى يدفع إليه الإيمان استعدادًا للحساب ثوابًا وعقابًا، وليكون موته تسليمًا باطمئنان لجلالٍ يفوق إدراكه، ولعظمةٍ تتخطى قدرة عقله المحدود على استيعابها؟!

(٢٤)

"تسليم واستسلام"

كلهم كانوا دائمًا على قناعة بأنهم على صواب، ولم يتسلل الشك إلى قلب أو عقل أيٍ منهم فى يومٍ من الأيام. كانوا يعلنون فى ثباتٍ وتباهٍ وعُجبٍ ما هم عليه من نعمة الإيمان الصحيح، ومن ثم اتباع العقيدة السليمة. وكان هو الوحيد بينهم الذى ينتابه من حين لآخر الشعور بالغربة والإحساس بالاغتراب.

كان هناك باعثٌ خفيٌ يقبع فى داخله ويحثه دومًا على البحث والتقصى واستقراء مسلمات تم تلقينها له على أنها حقائق بديهية لا تحتاج لإعمال العقل لمراجعتها أو مجرد التفكير فيها. كان فى قلبه إيمان دفين بأنه مخلوق أبدع خلقه خالق واحد. وكانت تتصارع فى عقله عدة أسئلة ما تنفك عن التوقف على الإلحاح عليه حتى تهاجمه من جديد مرة بعد أخرى منتظرة إياه أن يقدم لها إجابات مقنعة.

هل حقًا الإيمان بأية عقيدة أيًا ما كان مُسماها واسمها هو نهاية الهداية أم بدايتها؟ وذلك الصراط المستقيم، الذى هو قطعًا واحدٌ فى عدده، ومن ثم لا يكون سواه إلا خطوطًا ملتوية ومتعرجة، هل يمكن الوصول إليه من خلال طريق واحد فقط؟ أم أن هناك طرقًا كثيرة تقود إلى هذا الصراط الذى لا اعوجاج فيه؟

ولماذا يظن الجميع أن فهمهم هم للحق هو الحق بعينه، ولا فهم سواه؟ ولماذا لا يسمحون جميعًا لأنفسهم باختبار هذا الفهم للتأكد من مدى مطابقته للتفكير العلمى السليم والمنطق العقلى الممنهج؟

ولماذا يكتفون فى عقيدتهم بما تمليه عليهم مشاعرهم القلبية المتقلبة وفقًا لدوافع الأهواء المتنازعة؟ ولماذا يصرون على أن يكونوا مستسلمين ومُسَلمين لما توارثوه عن آبائهم الذين بدورهم لم يفكروا بل قلَّدوا أيضًا من سبقوهم؟!

(٢٥)

"الحمير والعصافير"

مع كل صباح كانت تصحو على زقزقات العصافير، وفى منتصف اليوم كان يقرع طبلتىّ أذنيها نهيق الحمير. ولاحظت أن العصافير، التى كانت تغرد مع بداية كل صباح، تختفى دائمًا فى منتصف اليوم، وكأنها فرَّت من الأجواء المحيطة بالحمير التى تستعد أن تبدأ فى النهيق، أما هى فلم تستطع أن تبتعد عن النهيق وإزعاجه مثلما فعلت الطيور وطارت بعيدًا.

ومع بداية كل يومٍ جديد تشرق شمسه كانت تسارع هى بفتح نافذتها الصغيرة لإلقاء التحية على العصافير المغردة على أمل منها أن تصحبها معها ذات يوم بعيدًا عن إزعاج الحمير. ولما طال انتظارها لأملها الخيالى، فكرت فى أن تتمسك بأملٍ واقعى يمكنها تحقيقه، بدلاً من أن تتخلى تمامًا عن التعلق بتغريد العصافير، فتمخض فكرها وتفكيرها عن أنه مثلما لن تتحول يومًا ما زقزقات العصافير إلى نهيق للحمير، ولن يتحول يومًا ما نهيق الحمير إلى زقزقات للعصافير، فعليها هى أيضًا أن يكون صوتها قدر استطاعتها كزقزقات العصافير وليس كنهيق الحمير، لعلها تتمكن بتلك المحاكاة من الاجتماع يومًا مع العصافير، مقتربة منها ومؤتنسة بتغريدها ، فتكون بذلك قد ضمنت الابتعاد نهائيًا عن الحمير وعدم الاجتماع معها فى مكانٍ واحد.

(٢٦)

"القانون"

قبل أن يقوموا بأى شيء سَنوا القوانين التى ستحكم كل شيء، ووضعوا الميزان الذى سيزن كل كبيرة وصغيرة، وهكذا قامت مؤسستهم منذ نشأتها على نظام واضح ودقيق وعادل - على الأقل من وجهة نظرهم. وأولئك الذين كانوا يرون أن القانون الذى وُضع للمؤسسة لم يكن عادلاً كفاية، كان يكفيهم أن يرفضوا الانتماء منذ البداية لهذه المؤسسة ومن ثم الخضوع لقانونها. أما أفراد المؤسسة المنتمون لها والخاضعون لقانونها فليس عليهم مع كل خطأ أو صواب يصدر من أحدهم إلا انتظار الجزاء سواء كان عقابًا أم مكافأة.

ومع كل جزاء وعقاب تصدره تلك المؤسسة كان هناك كالعادة من يرضى به ومن يسخط عليه، وربما يكون منهم من هو على حق فى رضاه وكذلك فى سخطه، ولكن فى النهاية لم يكن على الجميع سوى الالتزام بالقانون الذى قبلوا الخضوع له فور التحاقهم بهذه المؤسسة، ومن ثم الخضوع للجزاء الذى لا مفر منه جراء كل عمل يقومون به.

(٢٧)

"براءة طفلة"

ظلت تجرى وتركض مندفعة هنا وهناك بلا وجهة محددة. لم يكن يوقفها سوى رؤيتها لطفل أو طفلة فى مثل عمرها، أو أصغر قليلاً منها، فتندفع نحوه أو نحوها لتقبله أو لتحتضنها. كانت هى البراءة تمشى على قدمين بلا أدنى تردد أو ارتياب، ولا يحركها سوى قلبها الصغير الذى لم يتعرف بعد على معنى التمييز، أو يُملَى عليه من أحدٍ من الآحاد التحريض على العنصرية، وبث الدافع التحفيزى لها.

كانت شحنة متحركة من العواطف الإنسانية الحية والجياشة فى أطهر أثوابها وأنقى صورها. كانت طفلة صغيرة الحجم وقليلة العمر، وكبيرة القلب ومتدفقة الأحاسيس. كانت تحمل روحًا طاهرة ندر وجودها حتى بين الأطفال الذين هم فى مثل عمرها. وكانت روحها هذه ترفرف على كل الأنحاء التى يتحرك فيها جسدها الضعيف، والذى يحمل وجهها الطفولى البريء فى ملامحه، والبديع فى قسماته، لتشرق منه ابتسامة أجمل طفلة فى العالم.

(٢٨)

"الله أكبر"

اتصلت بها صديقتها لتخبرها أن قاتل زوجها، الذى حصل على البراءة فى قضية مقتله الشنيع، سيخرج اليوم من محبسه ليصبح حرًا طليقًا دون أن يدفع ثمن جريمته، التى تسببت فى فقدها لشريك حياتها ووالد أبنائها الأربعة دون ذنبٍ اقترفته يداه.

اتصلت بها وهي فى حالة من الذهول من حكم القضاء الذى برّأ القاتل لعدم كفاية الأدلة المادية والأوراق القانونية. صارحتها بحالة الارتباك والحيرة التى تمر بها خاصة وأن عليها إخبار أبنائها بهذا الأمر. فكيف لها ذلك؟! وقد مكثت عامين كاملين مؤكدة لهم مع إشراقة صباح كل يوم جديد أن حق أبيهم لن يضيع هدرًا، وأنه مات شريفًا وقُتل غدرًا بسبب نضاله ضد الظلم والبغي، وأن عليهم الاقتداء بسيرة والدهم فى حب وطنهم والانتماء لأرضه. فإذا بها بعد ذلك تفاجئهم بأن القانون لم يستطع أن يعطى لأبيهم حقه بعد مقتله، مثلما لم يستطع وطنه أن يضمه إلى صدره قبل موته.

إن هذا الحكم البطيء الصدور أجهز على زوجها ليقتله مرة أخرى وهو فى قبره، بعدما فتك به قاتله فى ثوانٍ قليلة عندما أصابه برصاصة غادرة فى رأسه. إن هذا الحكم قتل لديها الإحساس بالأمان فى بلدها، وأجهز على أملها فى أن تستمر فى غرس قيم الانتماء للوطن فى عقول ووجدان أبنائها. وبأي دليل

ستستطيع بعد ذلك أن تقنعهم بأن راية العدل ترفرف على الجميع دون استثناء أو تمييز.

ولم تكن صديقتها أقل منها ذهولاً، وهى التى رافقتها طوال عامين كاملين على أمل الحصول على حق زوجها القتيل. ومن شدة ارتباكها وفرط المفاجأة عليها لم تستطع الرد على صديقتها وهى الزوجة المكلومة مرتين، ولم تتمكن من التفوه بأية كلمة تخفف عنها ما تعانيه من ألم وما تكبدته من معاناة. واستمر صمتها الذى ستر حسرتها وخيبة أملها فى حين اخترق سمعها صوت الآذان بالصلاة هاتفًا: "الله أكبر... الله أكبر"، فإذا بالزوجة هي الأخرى تنصت إليه وكأنها تسمعه لأول مرة فى حياتها. لقد أحست أنه رسالة إليها من السماء نزلت على قلبها لتمنحه بعض السكينة والطمأنينة. ومن وقتها لم تتوقف عن ترديد كلمة "الله أكبر" فى صدرها وعلى لسانها.

(٢٩)

"الاكتفاء والشبع"

اشترى كل شيء حتى آخر شيء أراد أن يشتريه من السوق، وأخذ يفعل ذلك فى كل مرة ينزل فيها إلى السوق ليشترى منه ما يريد. وذات مرة أخذ يتأمل من حوله فوجدهم مثله يشترون كل شيء يريدون شراءه، وكأن مهمتهم الشرائية لا يمكن أن تتم حتى الوصول إلى آخر شيء قرروا أن يشتروه.

وبين هؤلاء كان يوجد رجل بهي الطلعة أنيق الملبس بشوش الوجه لم يشترِ من السوق سوى القليل جدًا، فاقترب منه سائلاً إياه: "لماذا لم تقم بشراء الكثير حتى آخر شيء مثلما يفعل الجميع هنا؟" فأجابه بثبات: "لأننى لا أشترى كل ما أحتاجه، بل فقط ما لا أستطيع العيش بدونه، وهذا ليس لقلة مالى، ولكن لأننى أريد وأنا أغادر السوق أن أكون قد اشتريت منه الأهم لدى، على أمل أن أعود إليه مرة أخرى لشراء أشياء أخرى تلزمنى أيضًا، ولكنها أقل أهمية الآن". فسأله مرة أخرى باندهاش: " ولماذا تكلف نفسك فعل ذلك الأمر فى كل مرة؟". فأجابه على تمهل: "حتى لا تعتاد نفسى على الشبع فى كل مرة، بل تحاول أن تألف الاكتفاء بالقليل قدر المستطاع غير متلهفة على تمام الشبع."

(٣٠)

"نداء الحب"

كان يعرف أن كثيرًا ممن حوله لم تنبض قلوبهم بالحب، إما لأنهم لم يسمحوا لأنفسهم بذلك، أو لأن ظروف حياتهم أجبرتهم على إغلاق قلوبهم أمام خطر الحب. وظل هو ينتظر الحب ليطرق بابه فيفتح له بلا تردد غير خائفٍ من مداهمته المباغتة. وكان يستعين فى انتظاره للحب برؤية العشاق والمحبين الذين سطع نور الحب فى قلوبهم فبزغ فجره على وجوههم، ونضجت ثماره حتى كاد يراه فى عيونهم مختالاً فى موكبه يملأ الدنيا بعبيره الزكى، ويضمها بأغصانه الوارقة.

وعندما كان المحبون يتغازلون على مقربة منه، كان هو يضم قلب معشوقه الذى لم يره بعد، ولكنه كان دائمًا يستشعر نبضات قلبه التى ينتفض لها جسده.

وظل طويلاً هكذا ينعم بدفء أحضان حبيبه الذى لم يقابله بعد، ولم يتطلع لوجهه. فقد كان كطائر هائم فى الفضاء يقترب منه أحيانًا، ويهرب منه أخرى. فهل إذا قابله يومًا ما سيستطيع أن يحتفظ به فى معيته لأطول وقتٍ ممكن؟!

(٣١)

"وهم التقى وزيف الصلاح"

سرق ونهب .. غدر وقتل .. كذب وضحك. خان الأمانة وسنَّ القانون الذى يبرئه هو وأعوانه. تسللت إليه دموع المقهورين، فألقى عليهم نظرةً غير مبالية من عليائه، ثم أغمض عينيه.

قرعت أبوابه آهات المظلومين، فسمعها على مضض، ثم سدَّ أذنيه.

وعندما أغرقت الدماء شوارع المدينة، أمر حراسه أن يغلقوا عليه كل باب إلى أن تجف كل الدماء؛ ولكنَّ الدموع والآهات والدماء أضحت أجراسًا أسمعت أهل الأرض، وقرعت أبواب السماء.

أقنعهم بالاحتكام للقانون، وبسذاجة الجهلاء نسوا أنه هو الذى أمر وأشرف على وضع القانون، فخرج عليهم بعد أيام ليثبت لهم أنه بحكم القانون ما هو إلا ذلك البريء والمُفترى عليه ظلمًا وعدوانًا.

ابتسم بهدوء ثم عاد لقصره وجاهه بعد أن فقد بعضًا من سلطانه، وتناول الدواء ثم شكر الله وصلَّى ما اعتاد أن يصليه من ركعات وسجدات، ثم نام على سريره مثلما اعتاد أن ينام طوال ليالٍ طويلة وسنوات مديدة. وما أن استيقظ من نومه فى الصباح الباكر إلاَّ وقد قرَّر أن يمن على فقراء مجهولين بالقليل من أمواله حتى يريح ضميره تجاه كل الفقراء الذين كانوا يومًا ما رعيته وهو راعيهم. فأنفق واستمر فى الإنفاق إلى أن مات تاركًا القصر والجاه والأموال، ومفارقًا حتى لهواه الذى زيَّن له عمله فرآه حسنًا طوال حياته.

(٣٢)

"عُلبَة"

من فرط ما تنقل داخل العلب المختلفة فى حياته جاءته لحظة قرَّر فيها أن يخرج من جميع العُلب التى أمضى بداخلها ردحًا طويلاً من عمره. وفى هذه اللحظة، أخذ يسترجع حاله فى تلك العُلب واحدة تلو الأخرى. وكانت أولى هذه العُلب هى الحضَّانة التى استقبلته بداخلها وهو طفل وليد، ثم تلتها العُلبة الخرسانية التى كان يسكنها مع والديه وأفراد أسرته. وبعد ذلك العلبة الصفيح التى كان يستقلها للانتقال من مكان لآخر وللسفر من مدينة لأخرى فى بلده. وكذلك العلبة الحديد التى سافر بداخلها حول العالم مخترقًا السحاب على مدار عدة شهور كل عام.

ما أروع شعوره الآن وهو خارج كل هذه العُلب التى ربما وفرت له الأمان وسرعة التنقل من مكان لمكان، ولكنها حرمته من الإحساس بمدى رحابة العالم من حوله، وقيدته فى مساحات مغلقة وضيقة لم تكن لتسمح له باستنشاق الهواء دون أية حواجز بينه وبين السماء.

ومع شدة استمتاعه بحريته خارج كل تلك العُلب، ظل يطارده سؤالٌ واحد أربكه وتسبب فى حيرته، ألا وهو: "هل سيستطيع فيما بقى من حياته أن يمكث خارج كل هذه العُلب دون الحاجة للعودة إلى أي منها مرة أخرى؟!"

(٣٣)

"البر والطاعة"

فى كل مرة كان يغضب منه بسبب أو بدون سبب، كان يهدده ويتوعده ليس فقط بغضبه عليه كأبٍ له، بل أيضًا بغضب الرب عليه وعدم رضاه عنه. وكأن غضب أبيه عليه فى الأرض هو الممثل لغضب الرب عليه فى السماء. وكان هذا التهديد وذلك الوعيد كافيين له ليشعر بعظم ذنبه الذى اقترفه، ليس فقط تجاه الأب، ولكن أيضًا أمام الرب.

وبمصاحبة هذا الإحساس المؤلم، ورغم أنه لم يكن يخطئ ذلك الخطأ الجسيم الذى يستحق عليه كل هذا الغضب منه ، أو الغضب عليه فى كثيرٍ من الأحيان، إلا أنه كان يرغب بينه وبين نفسه فى التمرد على ذلك الاستبداد الأبوى الذى يرتدى الثوب الربوبي، فلا يستطيع أن يفرق بين طاعة الأب وطاعة الرب، والذى يخلط بين البربالوالدين والإحسان إليهما، وبين الإلزام بالطاعة العمياء للمخلوق فقط لكونه أبًا أو أمًا. وهل تتطلّب دائمًا الطاعة قولاً أن تصاحبها الطاعة فعلاً؟ أم أن المصاحبة بالمعروف تقتضى التوازن بين الأقوال والأفعال لمحاولة إرضاء الوالدين دون الانقياد لهما فى المطلق بحجة طاعتهما حتى لو كانت بلا تفكير.

(٣٤)

"الوصية"

طرقت كل الأبواب حتى آخر باب، وقرعت طبول كل الآذان بلا استثناء، وعندما اقترب موعد رحيلها تشبثت بثوب آخر إنسان طرقت بابه، وقرعت طبلة أذنه قائلة له: "ها قد دنت ساعة الرحيل، وسأترك الحياة مثلما يفعل كل مخلوق، وإنى أشهد خالقى أننى لم أقصر، وقمت بعملى الذى خُلقت من أجله، فهل ستكون لى حياة بينكم بعد موتى؟ وهل سَتبعث ذكراى فى نفوسكم الأمل الذى كنت أبثه فيها وأنا بينكم؟" ... وما أن أتمت طلبها هذا الذى كان على شكل سؤال، حتى لفظت آخر أنفاسها تاركة إياه حائرًا بين تكفين جسدها ودفنه مثلما الحال مع كل الأموات، أم عليه أن يحفظ جسدها فى تابوت حتى تظل ماثلة أمام أنظار زائريها؟

وطالت حيرته هذه حتى تذكر آخر ما قالته له وهو: رجاؤها أن تكون ذكراها هى الباعث للأمل فى النفوس، مثلما كانت هى فى حياتها بينهم. عندئذٍ أيقن أن حفظ جسدها لن يحقق لها رجاءها، وأنَّ عليه الآن ما هو أعظم من الماديات التى يتعلق الإنسان برؤيتها ولمسها حتى يعتاد على ذلك الأمر فلا يحدث لديه أدنى أثر مع مرور الوقت، بل يدفعه التكرار وكثرته إلى عدم التفكير فيما يفعل ولماذا يقوم به.

إنها أرادت الحفاظ على ذكراها فى النفوس دون أية ضغوط مادية أو دوافع غير عقلية.

لكن كيف له أن ينفذ وصيتها بمفرده؟

يبدو أن ما عليه الآن هو أن يبادر ويبدأ بنفسه. وبالفعل بدأ من جديد فى طرق الأبواب واحدًا تلو الآخر، وأخذ يقرع طبول الآذان من بعيد، ولم يتوقف عن تلك المهمة التى فرض على نفسه القيام بها، وهو مطمئن أنه بذلك يكون قد قام بما يجب عليه القيام به تنفيذًا لرجائها الذى تركته أمانة فى عنقه، ولوصيتها التى كانت متأكدة من وفائه بها. فحمل كلمة الأمل التى حملتها، وردَّد على مسامع الناس كلمة الحق والعدل التى أوصته بها.

(٣٥)

"إصرار"

وقف لإلقاء بحثه أمام جمهور الحضور وأمام أستاذه، الذى سبق وأن قدمه لهم على أنه أحد تلاميذه النجباء الذين كان له عليهم أعظم الأثر ليصبحوا ما هم عليه الآن. وبينما كان هو فى قمة النشوة والسعادة، لأنه استطاع بفضل الله أن يثبت للجميع ولنفسه أنه يستحق أن يكون باحثًا متميزًا، كانت تدور فى خلده ذكرياته مع نفس الأستاذ عندما كان مشرفًا على رسالته العلمية التى تقدم بها لنيل درجة دكتوراه الفلسفة فى أحد العلوم الاجتماعية، والتى ناقشها منذ سنواتٍ مضت.

واسترجع للحظاتٍ الساعات الطويلة التى عانى فيها أثناء مناقشة رسالته من استبداد أستاذه به، وطغيانه عليه لتحطيم معنوياته بعدما تأكد أنه لن ينال من تمكنه من معلوماته العلمية. ولم يجد الأستاذ سوى أن يتهم تلميذه بالإهمال تارة، وبعدم طاعته له تارة أخرى مما تسبب فى أن تكون رسالته بهذا المستوى غير الجيد. ومن الغريب أن يمكث الأستاذ مصممًا على عدم فتح مجلد الرسالة أمامه، وأن ينقطع التيار الكهربائى خلال تقديم الباحث لعرض تقديمى لرسالته، بينما هو يحاول ألا يهتز أو أن يفقد ثباته وثقته بنفسه وببحثه. ومع استمرار تربص أستاذه به، هو ومعاونوه من الأساتذة المشاركين فى مناقشة رسالته، ومع خنوعهم جميعًا لأوامره لهم بعدم

إبداء أية عناصر إيجابية فى البحث المعروض عليهم، استمر أيضًا هو صامدًا أمامهم مدافعًا عن بحثه الذي أمضى فى إعداده سنوات ملؤها الجدية والاجتهاد والصبر بدون أدنى مساعدة من أستاذه المشرف.

وياللعجب!! .. فمثلما اجتهد ذلك الأستاذ ومعاونوه فى ذم رسالة تلميذه من قبل، إذا بهم اليوم يتنافسون فى مدحه، ويتسابقون للتقرب منه بعدما أصبح باحثًا ذا شأن، وذلك طمعًا منهم فى نيل بعض المديح الكاذب والثناء الزائف عند إدعاء فضلهم عليه منذ أن كان واحدًا من زمرة طلابهم النابغين الذين لم يبخلوا عليهم قط بالرعاية أوالاحتضان.

(٣٦)

"الرسالة المطوية"

في عام مائتين وألفين قبل الميلاد، كان هناك صيادٌ بسيطٌ يصطاد بالقرب من شاطئ دولته العريقة التاريخ ، وبعد طول انتظار لسمكة واحدة تطفئ نار جوعه، التقطت شبكته زجاجة شفافة بها ورقة مطوية لم يعرها أى اهتمامٍ لأن همه لحظتها كان منصبًا على التهام الطعام وليس على القراءة. استمر ذلك الصياد في طلب الرزق حتى زوال الشمس، وقبل لحظات من اتخاذه قراره بالانصراف، تمكن من اصطياد سمكة صغيرة، وعلى الرغم من إحباطه وعدم رضاه بهذا الرزق القليل، إلا أنه من فرط يأسه من الحصول على المزيد من الطعام لم يعد أمامه سوى العودة لمنزله لتناول السمكة الصغيرة التى اصطادها.

وفى المنزل الذى يسكنه بمفرده وأثناء قيامه بطهي السمكة الوحيدة، التفت إلى الزجاجة الشفافة وإلى الورقة التى بداخلها، فعزم من باب التسلية على فتح الزجاجة وفحص ما بها من ورقة مطوية لحين الانتهاء من عملية الطهو. فإذا به يكتشف أن تلك الورقة المطوية ليست سوى رسالة كانت تلك هى كلماتها:

"إلى كل من ساهم ويساهم فى فساد أو استبداد أو طغيان ... هنيئًا لكم بناء دولتكم، وما اتخذتموه لها من العاصمة التى تحبون. استمتعوا بجناتها وأنهارها

وكنوزها غير عابئين بالجوع والفقر والمرض والعوز الذى يستفحل على مرأى ومسمع منكم، ولكن مع كل شروق وغروب للشمس سينهض كل مظلوم ومقهور كان له حقٌ فضاع بخسًا رغمًا عنه مثلما تسرب عمره هربًا منه، وسيفتح نافذة الحرية طالبًا للعدالة، وآملاً فى انتصاره نصرًا مؤزرًا، وفى نجاته من كل قومٍ ظالمين ومن كل جماعةٍ كاذبين."

"إن كل ما سبق من كلمات قد دار بخلد رجل تقدم به العمر، وأصابه الإحباط بعدما رأى بعينيه ثورة، قام بها شباب مدينته على الظلم والطغيان، فإذا بها تضيع وكأنها لم تكن، وهذا الرجل المسن لم يجد سواى أنا لأكتب له هذه الرسالة، التى طلب منى أن تصل لمن يهمه الأمر. ولأننى فى كل مرة كنت أقرأ فيها هذه الرسالة لمن أعتقد أنها تهمهم تنفيذًا لوصية صديقى المسن، لم أكن أجد سوى عدم الاكتراث واللامبالاة؛ لذا فقد أرشدنى عقلى لإلقائها فى البحر لعلها يومًا ما تصل لمن يقرؤها فيفهمها ويعي ما فيها. وإذا كنت أنت أول من يفتح هذه الزجاجة ليقرأ الرسالة المطوية بداخلها، فاعلم أنه فى وقت كتابتها كان هناك أشخاص لا يعرفهم أحد، ولن يخلدهم التاريخ، ولكنهم كانت تدفعهم ضمائرهم لاستشعار الأخطار التى تحدق ببلادهم."

انتهى الصياد من قراءة الورقة المحفوظة فى الزجاجة، فإذا به يشم رائحة سمكته الوحيدة وقد احترقت عن آخرها فألقى بالرسالة بعيدًا عنه غير مباليًا بها، كى يسرع لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من السمكة التى لا يملك غيرها، فإذا به قد تأخر عن إنقاذ سمكته مثلما تأخر غيره عن قراءة وفهم الرسالة المطوية بنحو ألفى عام وأكثر.

(٣٧)

"نضوج"

كان هو متعجلاً للبلوغ وللنضج راغبًا فى الابتعاد عن الطفولة بما فيها من لهوٍ ولعبٍ وعدم تحملٍ لأدنى مسئولية، بينما كان صديقه الوسيم المترف منغمسًا فى لهو ولعب الطفولة رافضًا أن يتركهما رغم مضى السنوات. وظلا سويًا لا يفترقان طوال فترة مراهقتهما وفتوتهما البهية، ثم بعد ذلك افترقا كلٌ منهما فى طريقه حتى التقيا مرة أخرى بعد عدة سنوات وقد بلغ كل منهما أشده. فصافح كلٌ منهما الآخر فى تلهفٍ، واعتصرهما الفضول لمعرفة حال بعضهما البعض بعد أن بدأ الشيب يغازل رأسيهما. وبادر هو بسؤال صديقه الوسيم "سابقًا"عن حاله مع اللهو واللعب والحياة المترفة، فأجابه أنه مازال ينعم بهما مستمتعًا بالحياة وملذاتها من سهرٍ وصخبٍ وعلاقات نسائية وسفرٍ وتجوال ... فما أجمل الحياة إذا توفرت متعها جميعها بلا انقطاع! وبينما كان يستمع لإجابة صديقه عن سؤاله أخذ يحملق فى وجهه ويدقق فى عينيه، فلم يجد أية ملامح للسعادة الناتجة عن النعيم المفرط الذى يدعيه فى كلامه، بل وجد علامات تقدم السن ووهن العظام المبكر وضعف الصحة الذى يعم كافة الجسد وكأنه يعانى من أفتك الأمراض.

ولأنه كان معتادًا مع صديق طفولته على الصراحة والوضوح، لم يتوانَ عن التعليق على ما أظهره صديقه المترف من كلام لا يتوافق مع هيئته وحاله

الذى رآه فيه. فقال له: " ولكنى أراك مرهقًا ومتعبًا وشاحب الوجه، وأشعر وكأنك تميل إلى الترنح، فهل ذلك بسبب عملك لفترات طويلة؟" فأجابه صديقه باندهاش وتعجب: " أعمل لفتراتٍ طويلة؟! .. لا .. لا.. أنا لا أعمل فقد حصلت على الشهادة الجامعية بعد سنواتٍ عديدة من الرسوب، ولم أكن راغبًا فى الحصول عليها لولا إلحاح والدى، فما أن حصلت عليها بعد طول عناء، حتى قررت ألا أرهق نفسى فى عملٍ لا أحبه، ولكننى تزوجت وأنجبت طفلين، وانفصلت عن زوجتى بسبب إصرارها على موضوع العمل هذا الذى تسألنى عنه، وها أنا الآن حرٌّ طليق كالعصفور لا يستطيع أحد أن يرغمنى على فعل شيء لا أريده، بل أستمتع بكل لحظة فى عمرى وكأنها اللحظة الأخيرة فيه بلا مسئوليات ثقيلة أو منغصات للعيش."

فهز صديقه رأسه ليفكر قليلاً، ثم قال له: " نعم يبدو أنك مستمتعٌ حقًا بحياة الطفولة التى ما زلت تحياها، وتصر أن تمكث فيها للأبد، ولكن ماذا ستفعل عندما يأتيك هادم اللذات يومًا ما فجأة، لتجد نفسك وقد أمضيت عمرك كله طفلاً صغيرًا لم ينضج بعد ولم يعِ الحكمة من وجوده فى الحياة؟!" ولم تكد جملته الأخيرة هذه تنتهى، إلا وصديقه قد بادر مسرعًا بتوديعه غير ملتفتٍ وراءه، وغيرمكترثٍ بأية كلمة من كلماته.

(٣٨)

"بصيرة"

فقد بصره فجأة جراء حادث أليم، فأضحى لا يرى شيئًا مما كان يراه من قبل، وأمسى الظلام المحيط به بمثابة الليل الذى أقبل عليه بلا إدبار. ومع الأيام ألف الظلام واعتاد افتقاده للنظر بعينيه لرؤية ما حوله. ورغم عدم رؤيته لظاهر ما يحيط به إلا أنه بدأ يحاول باستمرار رؤية بواطن الأشياء ببصره، وإمعان النظر فى حقيقتها ببصيرته.

وكانت نفسه هى أولى الأشياء التى حاول رؤيتها على حقيقتها، وهى التى طالما كان غافلاً عن فهمها وإدراك كنهها فى ظل الالتهاء بزحام الحياة الماكر، وبريق الدنيا الخادع. ومع الوقت أدرك أنه لم يفقد سوى نظره الذى كان يرى به ظاهر الأشياء عن طريق عينيه، بينما هو الآن قد تمكن من استعادة بصيرته التى أتاحت له القدرة على فهم بواطن الأمور واستقراء كوامن الأشياء، ومكنه ذلك من استرداد شجاعته التى أعانته على الاعتراف بالحقيقة، وتقبل الواقع، ومحاولة التأقلم مع فقدانه لنظره، فاستطاع مع الوقت أن يرى ويبصر كل شيء بدون أى من عينيه، وكان ذلك سبب اندهاش من حوله.

(٣٩)

"إقدام"

جاءت تسألها عنه مثلما اعتادت دائمًا أن يكون سبب تواصلهما هو رغبتها فى معرفة أخباره منها؛ ولكن هذه المرة فاجأتها بأنها هى الأخرى لا تعرف شيئًا عنه منذ فترة طويلة. وبعد محاولات عديدة منها للاتصال به، علمت من أحد أصدقائه بمرضه فأسرعت بإبلاغها بما عرفته عن أحواله؛ وبينما كانت تفكر فى حجة تمكنها من التواصل معه دون أن تشعره أنها تقصد الاتصال به لتطمئن عليه، كانت السيدة الأخرى قد اتصلت به بالفعل لتحدد موعدًا لمقابلته والاطمئنان عليه بنفسها. ولم تتمهل السيدة الوقور فى الذهاب لمنزله مصطحبة معها باقة جميلة من الزهور البديعة، ومنتهزة فرصة لقائهما بعد طول انقطاع لتخبره بلا تردد عن حقيقة مشاعرها تجاهه بأسلوب أنثوى راقٍ غير متبجح. وما أن انتهت من كلمات إعجابها به حتى صارحها هو الآخر بتقديره لها واعتزازه بها منذ أن تعرَّف عليها.

وبمرور الأيام تعددت اللقاءات التى جمعت بين السيدة الوقور المحبة والرجل الذى أحبته وأحبها، حتى جاء اليوم الذى قررا فيه أن يفصحا عن حبهما للجميع ويتوجا قصة حبهما بالزواج. وفى تلك الأثناء كانت الفتاة الشابة تسعى للتواصل مع ذات الرجل الذى استطاع أن يأسر قلبها هى الأخرى بوقاره،

وأن يجذبها إليه بأناقته ولياقته ولباقته، فاتصلت به بعد أن استجمعت شجاعتها لمقابلته.

وبالفعل ذهبت للقائه فى مكتبه مرتدية أجمل ثيابها ومتزينة بأبهى زينتها لتوقعها أن يكون لقاؤهما لقاءً حارًا بعد ذلك الانقطاع الطويل. وما أن رأته حتى احمرت وجنتاها خجلاً منه مثلما يحدث معها فى كل مرة تراه فيها، وكان هو كعادته مرحبًا بها ومقبلاً على التحدث معها بانسجام يريح صدرها، وبمودة تهدئ من روعها، رغم أنها كانت تزيد من عدد نبضات قلبها. وبينما هما جالسان سويًا حتى دخلت عليهما السيدة الوقور لتفاجئها بأنها سبقتها إليه، وأنها أصبحت الآن أكثر قربًا إليه منها، وها هى تدعوها لحضور حفل زفافهما قريبًا. فلم تجد الفتاة سوى إظهار سعادتها بنبأ زواجهما، وهمت مسرعة بمغادرة المكان متحسرة على ما أمضته من وقتٍ طويلٍ وهى تظن أن قلب من أحبته ربما سيكون يومًا محتضنًا قلبها.

(٤٠)

"تجسيد الغيب"

هذه المرة لم تكن ككل مرة يكلفونه فيها برسم صورة لذلك الشخص الذى لم يرَ صورته أحد ممن يرسمونها رأى العين، ومع ذلك استمرت تلك الصورة الخيالية فى الأذهان هى مصدر إلهام للآلاف من المصورين والفنانين. وسأل نفسه مستفهمًا: "تُرى كيف كانت تبدو صورته الحقيقية؟!، وهل من الممكن أن تكون غير كل تلك الصور التى تحاول أن تقترب من ملامحه فإذا بها ربما تبتعد عنها كثيرًا؟"

"إن كل هذه الصور المرسومة هى صور خيالية وليست حقيقية، لذا فنسبة صحة كل الصور التى رُسمت بالفعل تساوى نسبة صحة الصور التى لم تُرسم بعد، فما الدافع إذن من وراء رسم صور مرئية تتساوى نسبة واقعيتها ودرجة تجسيدها للحقيقة مع الصور المتخيلة وغير المرئية والتى لم تتحول بعد إلى رسومات؟!" وأصبح ذلك السؤال المُلح يفرض نفسه دائمًا عليه كلما شرع فى رسم صورة جديدة تم تكليفه برسمها.

ومع إصرار من كلفوه بالرسم على الحصول على الصورة فى أسرع وقت، ومع عدم قدرته على رفض تكليفه بالتصوير، بادر برسم صورة مختلفة تمامًا عن كل ما اعتاد أن يصور به ملامح ذلك الشخص المطلوب تصويره ورسْم ملامحه. وعندما انتهى منها عرضها عليهم فاندهشوا لما رأوه من صورة لم

يعتادوا أن يرسمها هو من قبل. ولما سألوه عن السبب فى ذلك أجابهم: "إنها واحدة من الصور الخيالية العديدة التى تحرصون أن تصور ذلك الشخص، ومثلما تختلف من فنان لآخر، فإنها أيضًا مختلفة عن سابقيها لنفس الفنان."

ومع اندهاشهم من إجابته وبرغم عدم إيلافهم للصورة الأخيرة التى رسمها، إلا أنهم لم يحاولوا أن يتوقفوا طويلاً أمام إجابته تلك ولا أمام صورته الجديدة أكثر من ذلك، إذ كان الأهم عندهم هو الإسراع بالحصول على الصورة لوضعها فى المكان المخصص لها، والذى يؤمه الآلاف كل يوم، لتتحقق بذلك الغاية المنشودة من وراء تجسيد أية صورة خيالية سواء للزائرين المشتاقين لرؤية الصورة التى تجسد صاحبها، أوللمسئولين عن ذلك المكان المُزار موضع الصورة.

(٤١)

"مصرع قطة"

مرت كعادتها من نفس الشارع الذى تمر عليه كل يوم للذهاب إلى عملها، فإذا بقطة مدرجة فى دمائها تعترض طريق مسيرها بعدما صدمتها فى غالب الأمر سيارة مسرعة. لقد كان منظر القطة القتيلة مؤلمًا لها لدرجة جعلتها تستدعى من ذاكرتها فور مغادرتها للمكان تلك الذكرى الصادمة التى شهدتها بنفسها منذ أعوام. فمثلما صدمت السيارة المسرعة منذ قليل تلك القطة الصغيرة تاركة جسدها ملقىً فى طريق المارة، صدم قطار فائق السرعة أيضًا جسد شاب صغير تاركًا أشلاءه متناثرة على قضبان السكة الحديد.

فى البداية تبادر إلى ذهنها السؤال المعتاد بعد كل حادثة، وعما إذا كانت مقصودة أو عن غير عمد مِن الشخص المتسبب فيها، ولكنها بعد ذلك ومع كل مرة كانت تتذكر فيها ذلك المشهد الأليم، أصبحت تفكر فى تلك النهاية الخاطفة والمؤلمة للأحياء من البشر، وفيما قد يعقبها من مشاهد لم تتم مشاهدتها بعد، ولكنها ستظل موضع تساؤل الكثيرين سواء كانوا من المفكرين أو من زمرة الناس العاديين الذين سيلتقون جميعًا بالموت أيًا كانت صورة إقباله عليهم.

(٤٢)

"رحلة سلام"

فى رحلة بحثه عن السلام فى كل ما حوله ووسط كل من حوله، كان يصطدم بكل ما يناقض السلام، وعلى الرغم من كثرة تناقل عبارات وتحيات السلام ليل نهار بين الجميع فى كل مكان، كان يوقفه من يبادرون بالسلام إعلانًا عنه بإلقاء تحيته بينما يخفون فى صدورهم الكثير من العنف والشر الناتجين عن الضغائن الدفينة.

ومع كل صدمة كانت جديرة بأن تجعله يعتزل كل سلام خارجى ويتخلى عن سلامه الداخلى، كان ينهض من جديد مقاومًا استسلامه للآلام ومعلنًا للجميع أنه مازال داعيًا للسلام بصدق وملتزمًا بتطبيقه عن عمد.

لقد عاش بسلام مع الجميع، مقررًا الابتعاد عن المنافقين من أصحاب الضغائن والأحقاد، ومفضلاً الاقتراب ممن يبادلونه الاعتزاز بالسلام والالتزام بفضائله. وظل هكذا رافضًا لأى حرب حتى لو كانت بدعوى طلب السلام أو لمبررات الدفاع عما بقى منه، إلى أن كانت كلمة "السلام" هى آخر كلمة خرجت من فمه مع آخر نفس فى حياته.

(٤٣)

"جبال الصمت"

استخدم نفوذه للهروب من العقاب ولخرق القانون ولبخس ميزان العدالة، واستطاع أن يُنفذ جريمته بمكر ودهاء دون أن ينال جزاءه الذى يستحقه من هو مثله. ورغم سخط البسطاء عليه ومرارتهم تجاهه وتجاه من سهَّل له خرق القانون والسطو على حقوق الآخرين، إلا أنه كان يبدى للجميع فى كل ظهور له أنه دائمًا على حق، وأن من مثله من المتفانين من أجل الفقراء والمُعدَمين لا يمكن أن يكونوا هم أنفسهم الذين تسببوا لهم فى هذا الفقر، أو ساهموا فى وصولهم لما هم عليه الآن من العدم فى كل شيء.

ولم يكن مهمًا لديه أن يصدقه أحد منهم، ولكن المهم عنده كان سكوتهم جميعًا على ماهم فيه ورضاهم عما يحدث لهم دون أى تذمر أو ضجر، واستمرارهم على ذلك الحال من التسليم والخضوع، وأن يظلوا موقنين بأن تلك المظالم التى ألفوها واعتادوا عليها طالما لن تزيد عن هذا الحد الذى وصلت إليه، فيجب أن يكون ذلك هو أقصى طموح لهم وأعظم أمل لديهم، إذا ما رغبوا فى طموح، أو طمعوا فى أمل.

ومع تكرار الجريمة وتكرار خرق القانون وتكرار قهر ميزان العدل، وتكرار الصمت وقبول الظلم والخنوع للجور والطغيان، أصبح للعدل مفهومٌ آخر، وأضحى للظلم مذاقٌ مستساغٌ مع أنه مرٌ، وأمسى كل ما يقاسيه هؤلاء الخانعون المستضعفون من مظالم تتزايد يومًا بعد يوم ليس سوى العدل بعينه الذى استحقوا أن ينالوه جراء خضوعهم للظالم وقبولهم لجوره وطغيانه.

(٤٤)

"خارج البرواز"

لم يكن هو الذى وضع صورته داخل البرواز، بل وضعها من حوله فى إطارٍ صنعوه بأيديهم، ليكون هو السياج الذى يحمى صورته من العبث بها، أو التطاول عليها، بالإضافة لأهميته فى أن يحجب شخصه عن التحرك خارج ذلك الإطار أو التحرر منه. ونظرًا لإعجابه الشديد بذلك البرواز، الذى سيضمن له طول البقاء، والذى سيحقق له المزيد من المريدين والأتباع، لم يعترض على تقييد صورته فى بروازٍ ضيقٍ مهما كبر حجمه، بل ازداد إعجابه به، ولم يتذمر ذات مرةٍ من أسره هو شخصيًا داخل إطارٍ وضعه له من حوله دون اللجوء لمشورته.

كان البرواز جميلاً حقًا، وظل كذلك فى نظره، حتى أنه اعتاد الحياة داخله، وتآلف مع إحاطته به فى كل مكانٍ وفى أى وقت. ولم يكن يضيق بذلك السياج اللعين سوى رفيق دربه، الذى لم يقبل مثله أن يحاصره أحد بإطارٍ يقيد حركته أو يعوق عقله الحر عن الانطلاق فى الفضاء الفسيح، فظل سائحًا فى كل الدروب، وسابحًا فى أعماق البحور، منقبًا عن مناجم العلم، ومفتشًا عن لآلئ الفكر، حتى اهتدى بعد ارتياب، واقتدى بعد احتياج، غير مكترثٍ بأى أتباع أو مهتم بأدنى شهرةٍ أو انبهار، فى حين ظل صاحبه أسير صورته المحاطة بالبرواز، وغير قادرٍ على الفرار منها أو الانقلاب عليها.

وبمرور الوقت سقط البرواز الجميل من على الحائط القديم، فأضحى هشيمًا متناثرًا فى كل مكان، ولم يستطع أحد أن يلملم شعثه بعد تحطمه، بعدما فشلوا جميعًا فى حمايته من السقوط رغم محاولات من صنعوا البرواز أن يظل هو الإطار الواقى لصورة صاحبه من كل الصدمات وكافة الصدامات. وعندما علم رفيق دربه الطليق بسقوط صورة صديقه وتهشُم البرواز الذى بات عمرًا طويلاً سجانًا لرفيقه صاحب الصورة، كما لو كان ثعبانًا وقف به الزمن عند لحظة التفافه حول فريسته ليجهز عليها معتصرًا لأوصالها قبل التهامه جسدها، تأكد حينذاك من حسن ظنه بالحرية وأنها أثمن بكثير من قيمة أى برواز، وأن الحياة أرقى بكثير من أن يَسجن صاحبها نفسه داخل أى إطار أو سياج مهما كانت الإغراءات.

(٤٥)

"الصعود للمنتهى"

فى رحلة بحثها عن المنتهى كان فى صحبتها الأمل الذى ظل يرافقها من مكانٍ لآخر.

وفى صمودها أمام صعاب الحياة وصدماتها، وإصرارها على مجابهة عواصفها ولطماتها كانت لا تتوقف عن التطلع إلى الوصول للمنتهى.

وبعدما ظلت حائرة فى فهم كنه المنتهى، أدركت بعد طول تأمل أن المنتهى لا يمكن أن يتنافر مع المبتدا. وأنها إذا تعرَّفت على المبتدا سهل عليها التوصل للمنتهى وتوقعه.

ولما كان المبتدا كله مثل مبتداها بلا أدنى تدخل منها، فإن منتهاها سيكون حتمًا هو الآخر مثل المنتهى بلا أدنى تدخل منها. ويتبقى لها الآن تلك الرحلة التى ما بين مبتداها ومنتهاها لتنظر ماذا ستفعل فيها.

ومع البحث عن إجابات لأسئلتها حول المنتهى توصلت إلى أن أجمل ما فى الحياة هو الأمل، وأن أعظم الأمل هو الوصول للمنتهى، وأن أروع ما سيكونه المنتهى هو الصعود الذى لا يليه هبوط.

(٤٦)

"الشيطان الجميل"

قال له يومًا: "احذر الشيطان فإنه على الإغواء لقادر."

فسأله عن هيئته حتى يتعرف عليه إذا ما قدم إليه. فأجابه: " إنه قبيح المنظر، ومخيف الشكل، ولا يمكن لأحد أن ينظر إليه."

ومن ساعتها وهو يترقب إغواء ذلك الكائن الشرير، ويستعد لمواجهة من هو قبيح المنظر ومخيف الطلعة. وطال انتظاره له حتى ملَّ من ترقبه معتقدًا أنه لن يأتى. وبالفعل بعد تفكير طويل تأكد أن ذلك الكائن القادر على إغوائه لن يأتيه قبيحًا، ولن يكون مخيفًا، فلو كان كذلك لكان هو أول من ينفر منه ليلوذ بالفرار بعيدًا عنه قبل أن ينسج خيوط شَركه حوله فيسقط فيها.

ومنذ ذلك اليوم وهو يحذر من الشيطان الذى هداه إليه تفكيره وطول تأمله، وهو ذلك الشيطان صاحب الوجه الجميل والطلعة البهية التى إذا ما أسَرت القلوب أماتتها، وإذا ما تمكنت من النفوس ساقتها إلى الفجور وأبعدتها عن التقوى.

(٤٧)

"وِصال"

حياة سعيدة ظنتها هى الغاية التى ما أن وصلت إليها فلن تفتقد شيئًا بعدها، وبعد انسكاب كاسات السعادة لتشرب منها ما تشاء، أحست أن البئر الذى اغترفتها منه أوشك على الانتهاء، فخشيت أن يضيع بريق الحياة الذى ظل متلألئًا على مدار سنواتٍ طويلةٍ بالمال الوفير الذى تشترى به كل ما تحب أن تقتنيه، وكل ما اعتادت أن تفنيه. ومع تقدم العمر بدأت تتوجس خيفةً من فقدان الأبناء الذين تزايد عددهم تكاثرًا كان ظاهره القوة، وباطنه الأنانية والطمع. كانت مظاهر الحياة المُلهِية قادرة على أن تشغلها عن سر وجودها الحقيقي، فألهتها بتزايدها المستمر وتواصلها غير المنقطع إلى أن فقدت أصغر أبنائها الذى راح ضحية مرضٍ خبيثٍ فاجأه على غِرة، ولم يكتفِ بإرباك كل من حوله، بل كان سببًا فى أن تتوقف حياتها هى الأخرى مع آخر نبضة من نبضات قلبه الصغير. ومنذ تلك اللحظة بدأت تستعيد ذكريات حياتها المرفهة والسعيدة، وكأنها لم تعش لحظة سعادة واحدة، وكأن كل النعيم الذى تمتعت به لم يكن ولم يمر عليها.

ومع طول جلوسها بمفردها وعزوفها عن كل متاع الدنيا الذى كان يسعدها من قبل، لم يكن يجول فى خاطرها سوى انتظار الموت الذى اصطحب ابنها بعيدًا عنها بلا استئذان. وبعد ترقبٍ طويلٍ لزيارة الموت لها فى منامها أو

بعد صحوها، تذكرت ذات يومٍ أحد أقربائها الذى لم يتزوج، ولم ينهل من نعماء كان من الممكن أن ينغمس فيها مثلما فعلت هى وبقية أفراد أسرتها، وقررت أن تسأل عنه وعن أحواله، فعلمت بموته منذ أعوام فى هدوء وبلا ضجيج أو صخب، فعزمت على زيارة قبره بعد انتهاء إطلالتها على قبر ابنها الفقيد. وعند اقترابها من مقبرة قريبها المعتزل، فاجأها ذلك العدد الوفير من زوار قريبها الذى مضت على وفاته عدة سنوات، ولما سألت عن سر ذلك التزاحم عند قبره، علمت أن معظم هؤلاء هم من تلاميذه الذين كان يُعلمهم بلا أجر، ويرعاهم بلا مقابل، ويشفق على كثيرٍ منهم بلا إعلان، وأنهم يجتمعون لزيارته والدعاء له مرة كل أسبوع، وأنهم أكملوا بناء المؤسسة التربوية والخدمية التى وضع أساساتها قبل موته، لتنشر فكره وتترجم عمليًا ما أفنى عمره فى كتابته ليفيد به من حوله من البشر الذين قد يلهيهم متاع الحياة الرغدة، أو تشقيهم مصاعبها، عن الاهتمام بالغاية الحقيقية من وراء وجودهم أحياءً لبرهةٍ ستظل قصيرة مهما شعر الإنسان بطول زمانها.

وبدأت فى قراءة ما كتبه قريبها المفكر الزاهد، حتى أنهت الإطلاع على كل كتاباته، ومع انتهائها من قراءة كل كتابٍ له، كانت تشعر بالسكينة قد ملأت جسدها وعمَّت أوصالها، لتزيح عنها ما كان يثقل جسدها من هموم، ويقعد أطرافها عن التحرك بحرية. لقد كانت لذة الوصال بعد انقطاع هى حبل النجاة الذى ألقاه إليها قريبها بعد موته، مثلما ألقاه لكل من يريد أن يتلقى طرفه ليقبل على فهم معنى الحياة، ويكون مستعدًا للتلقى الذى سيمكنه من الارتقاء على الدنايا، والتعلق بحسن السجايا الموصلة لطيب الحياة الخالدة.

(٤٨)

"موكب النعي"

مرت العربة تجوب الشوارع تنعى فلان ابن فلان، وأخو فلان، ونسيب وقريب عائلات فلان وعلان. مرت لتخبر القاصى والدانى بموت ذلك الفلان الذى هو ابن فلان وأخو فلان وأبو فلان، ولتدعو الجميع لحضور دفنته وجنازته. مرت العربة بين الناس مثلما مرت حياته على الأرض مجرد رحلة عابرة لها نقطة بداية هى لحظة ميلاده التى ربما ابتهج لها الجميع منتظرين إياها، ولها نقطة نهاية هى لحظة موته التى ربما حزن لها البعض ممن عرفوه وأحبوه فترحموا عليه، أو انتظرها البعض الآخر ليرتاحوا من شره، أو ليأكلوا ما تركه لهم من ميراث أمضى عمره فى جمعه وتكنيزه.

مرت العربة، ومرَّ من كان حاضرًا ثم أصبح خبرًا لينساه غدًا من كان يتذكره اليوم. مرت العربة اليوم، وغدًا ستمر الذكرى، وبعد غد ستمضى الذكرى بعدما يمضى من كانوا يتذكرون. رحل الإنسان وبقيت إلى حينٍ ذكراه التى تحمل عبق عمله فى الدنيا. رحل صاحب الذكرى بجسده ليبقى فى ذاكرة محبيه ومبغضيه مجرد صور فى أذهانهم يستدعونها كلما تذكروه. رحل محمولاً على الأعناق ليدفن فى الأعماق بلا حراك بعدما كان من قبل يمشى مختالاً بأزهى الثياب فرحًا بالمال ومتمتعًا بالعيال. رحل غير مرتدٍ لأية ثياب، تاركًا كل المال وتركه كل العيال. صمت بعدما كان يصيح بأعلى صوته، وأغمض

عينيه بعدما كان يطلقهما فى كل حدب وصوب. تيبست يداه وتخشبت قدماه بعد طول حركة وكثرة قيام. استقرت جثته فى قبره بعدما أهيل عليها التراب، وغادر الجميع لينخرطوا فيما كانوا فيه منشغلين، فاعتبَر بالموت من اعتبَر فانتهى، ومرَّ عليه مرور الكرام من التهى ففجر.

(٤٩)

"اتجاه القبلة"

شرع فى الصلاة مثلما اعتاد أن يفعل طوال ما مضى من سنوات، وما أن انتهى منها حتى قال له أحد المارة بجانبه: " عفوًا سيدى ... هذا ليس اتجاه القبلة الصحيح". فرد عليه باندهاش:"ماذا تقول؟! كيف ذلك؟! أنا أصلى فى هذا المكان منذ سنوات وأعلم أن هذا هو اتجاه القبلة الصحيح." فسأله عابر السبيل بثقة:"وكيف أيقنت أن هذا هو اتجاه القبلة الصحيح؟". فأجابه دون تفكير وبلا تردد:"كل من هنا يقولون ذلك ويصلون فى نفس الاتجاه منذ سنوات." فرد عليه متعجبًا:"وهل هذا يكفى لتتأكد أن ذلك هو الاتجاه الصحيح للقبلة؟!"

فسكت قليلاً، ثم أخذ يفكر فى وسيلة يتأكد بها وبنفسه من أن الاتجاه الذى يُصوب وجهه نحوه منذ سنوات هو الاتجاه الصحيح الذى يجب أن يستقبله وهو يصلى حتى تكون صلاته التى يداوم عليها كل يوم صحيحة، ومن ثم مُتقبَلة.

(٥٠)

"اتساع المدى"

كانت عيناه قادرتين على رؤية الصورة من حوله من زوايا كثيرة، ولكنه كان يكتفى برؤية الصورة من زاوية واحدة فقط، وكان يصر على أن تلك الزاوية الأحادية هى الزاوية الوحيدة لأنها كافية ومرضية له تمامًا. وكان الماضى الذى عاشه زاخرًا بالأحداث، ولكنه لم يكن يتذكر منها سوى ما يريد أن يتذكره، وليس كل ما يستطيع تذكره.

وعاش حياته على هذا النحو الضيق من الرؤية والمحدود من الذاكرة، حتى أخبروه بمقتل ابنه الوحيد على يد ذى سلطان دون ذنبٍ اقترفه. فما كان منه بعد أن تلقى صدمة عمره إلا أن بدأ فى التدقيق فى الصورة، لرؤيتها جيدًا من زوايا لم يكن ليكترث بها من قبل، والتركيز فيما مضى من أحداث لإنعاش ذاكرته، حتى يتمكن من استرجاع ذكريات كان على مقربة منها، وأصبح الآن مصممًا على تذكرها بعدما كادت تختفى من ذاكرته لإهماله لها.

وأدرك حينذاك بعد اتساع مدى رؤيته واستحضاره الواعى لذكرياته جميعًا أنه هو من يختار أن يمحو الماضى إذا أراد له النسيان، أو أن يحييه إذا أراد له البقاء والاستمرار، وأنه هو من يختار أن يرى كل ما يريد أن يراه.

(٥١)

"تلقين"

صاح الأحباب والأقرباء مهللين "حلقاتك برجالاتك" احتفالاً بالمولود الجديد. ووسط الضجيج المزعج والفرحة المدوية علت الأصوات تأمر الطفل الرضيع بأن يسمع كلام أمه ويسمع كلام أبيه. إنها تلك الطاعة الواجبة التى تبدأ مع بداية حاسة السمع لينشأ معها ما يُسمَّى بالسمع والطاعة لأقرب البشر وأكثرهم حنوًا، ومع توحيد مصدر الكلام الذى يعطى الأوامر والنواهى، تتحول الطاعة إلى عادة يمارسها صاحبها بلا تفكير وينفذها بلا تردد. ويظل الطفل الرضيع ينمو ويكبر، وتظل حاسة السمع تتجه لمصدر واحد قريب إلى أن تتعدد المصادر المسموعة وتتنوع الأوامر وتختلف النواهى، فتتمرد الطاعة العمياء محاوِلة الإبصار فى طريق غير واضح المعالم، فيتشتت صاحبها فى حيرة، أو يقرر عدم الارتباك والعودة سريعًا إلى ذات المصدر الواحد الذى ألفه واعتاد أن يتلقى منه الأوامر والنواهى.

لقد ابتهج الأبوان بالمولود الجديد فاحتضناه برعايتهما حتى تخطى مرحلة الطفولة اللاعبة، وبدأ الدخول فى مرحلة الصبا، فما انفك أن يفكر فيما يقال له ويسمعه من والديه ومن غيرهما حتى أخذ يسأل ويناقش مسائل بعينها، ويفتش ويبحث عن أخرى. ومع نضج الطفل الذى أصبح صبيًا وبداية تمرده رفض الوالدان جنوح ابنهما عن طاعتهما، ولم يتقبلا أن يسمع وليدهما

لكلام أحد غيرهما أو يطيع أمر شخص سواهما، حتى لو كانت طاعته لغيرهما قائمة على قناعة منه ومترتبة على تفكير عميق. ومع استمرار نضج الصبى، استمر عناده وتمرده، وأصر على أن يفكر فيما يسمعه، وعلى أن يكون سلوكه المبنى على قراره ليس مجرد طاعة عمياء لأحد حتى لوالديه، بل سلوكًا حرًا مقتنعًا به ومدركًا لعواقبه ودوافعه.

(٥٢)

العبَّارة

أخبر أبناءه وزوجته أن عليهم الاستعداد للعودة للوطن بدونه، لأنها ربما تكون فرصتهم الأخيرة بعدما تم إغلاق المطارات وتوقف رحلات الطيران ذهابًا وإيابًا ولم يعد هناك سوى الطريق البرى الذى سينقلهم من مكان إقامتهم بالرياض إلى المدينة المنورة ثم إلى جدة ليستقلوا العبارة إلى وطنهم مصر. وبتصاعد حدة الاشتباكات الجوية بين الأختين الشقيقتين العربيتين العراق والكويت كان لابد أن تنال جارتهم الملاصقة دولة السعودية من الحب جانب، وكان ذلك الحب هو صواريخ حربية تسقط على منطقتها الشرقية ومناطق من الرياض العاصمة، ليرى سكانها من المواطنين السعوديين ومن الجاليات المقيمة هناك قسطًا بسيطًا من ويلات الحرب التى لا ناقة لهم فيها ولا جمل.

وكانت أزمة الحرب هذه فرصة سانحة لهؤلاء الأبناء الذين سمعوا كثيرًا عن الحروب العديدة التى خاضتها بلدهم مصر ضد أعدائها من المحتلين المغتصبين، والتى كبدتها خسائر فادحة لكنها هانت فى سبيل الوصول للحظة الانتصار التى نتج عنها التحرير المنشود للأرض والتحرر المأمول لسكانها. إنهم بالفعل شاهدوا حربًا عن قرب، ولكنهم لم يشعروا بأن تلك الحرب هى حربهم، ولم يفهموا سبب اندلاعها، ولا كيف ومتى ستنتهى. وفى ظل تلك المشاعر المختلطة والمبهمة أصبحوا بين عشية وضحاها أمام لحظة فارقة فى حياتهم ..

لحظة اختار فيها أبوهم أن ينقذهم من سعير الحرب، ليبقى هو فى بلاد الغربة التى وفرت له العمل وأتاحت له الرزق الحلال والوفير.

لقد قرَّر الأب أن يحتفظ بعمله غير مفرطٍ فى رزقه الميسور، وأن يحافظ فى نفس الوقت على حياة أسرته ويحميها من كل خطرٍ محتمل. وحانت اللحظة الفارقة التى يصعب الاختيار فيها عندما صعد الأبناء بصحبة أمهم على ظهر المركب مودعين أباهم وداعًا غارقًا فى الدموعِ، ومشبعًا بهواجس عدم حدوث اللقاء المأمول مرة أخرى، وبرجاء السلامة فى عالمٍ غير حنون.

(٥٣)

"المواجهة"

وقف مع زملائه من الطلبة فى المدرسة الثانوية فى ردهة الطابق الذى يحوى الفصل الذى سيُجرَى فيه الامتحان فى مادة من المواد التى لا تضاف للمجموع، ولكنها عصب الحياة العصرية الحديثة التى لا مناص من تعلمها بل وإجادتها قدر المستطاع. ولأنه عصر التكنولوجيا والمعلومات والحاسب الآلى فقد قررت وزارة التربية والتعليم آنذاك أن تكون مادة الحاسب الآلى مثلها مثل مادة التربية الدينية يتم الامتحان فيها بدون إضافة درجتها لمجموع الدرجات النهائية.

وبينما وقف الجميع فى انتظار نداء المدرس على اسم كلٍ منهم ليدخل إلى الفصل لتلقى الامتحان العملى فى مادة الحاسب الآلى، تم النداء على زميلٍ له ليدخل أولاً قبل الباقين، وما أن دخل لأداء الامتحان حتى تبادل الطلبة الواقفون فى انتظار النداء على أسمائهم الغمز واللمز حول سر استدعاء زميلهم هذا قبل الجميع، ومنهم من تهكم على ما حدث علنًا سواء بصوتٍ مرتفع يملؤه الغل والحقد، أو بصوتٍ خفيض يكبت مشاعر الرفض لما حدث من محسوبية دفعت بزميلهم دفعًا إلى الدخول أولاً لكونه ابن أحد المسئولين الكبار فى البلد، ومن ثم لا يليق به أن ينتظر مع الباقين حتى يتم النداء على اسمه فى موعده.

وتحدث الجميع عن زميلهم بنبرة حنق وغضب متناسين ما كان منه من حسن خلق وتأدب طوال فترة زمالتهم له والتى لم يُشعرهم فيها بأنه ابن فلان صاحب الجاه والنفوذ. واستمر الحديث عنه طوال فترة وجوده داخل الفصل الذى يجرى فيه الامتحان، وكان هو ممن سمع كل ما قد قيل عن زميلهم ابن الرجل المهم فى غيابه، بل وممن اشترك معهم أيضًا فى الكلام عنه سخطًا عليه. وفور خروج زميلهم بعد أدائه الامتحان، قرر هو دون غيره من زملائه أن يواجه زميله بكل ما يجيش فى صدره من غضب لدخوله قبلهم متخطيًا الجميع، فقذف فى وجهه دون تفكير ما جبُن بقية زملائه عن البوح به أمامه. وظن أنه فور أن يبادر بمواجهة زميلهم هذا بما كان منه وأغضبهم جميعًا، سيهب كل الساخطين وجميع الرافضين لما حدث هبة رجلٍ واحد يقاوم الظلم ويرفض (الكوسه)؛ إلا أنه وجد نفسه كريشة فى مهب الريح لا تعلم من قذف بها إلى الهواء، أو إلى أين ستذهب وينتهى بها المطاف. صمت الجميع أمام زميلهم، فبدا هو أمامه دون سواه وكأنه يفترى عليه ماهو كذب وليس بحق، أووكأنه هو الوحيد الذى غضب لما حدث. وفى الوقت الذى فضَّل فيه الجميع الصمت أمام زميلهم، قرَّر هو أن يدوم الصمت بينه وبينهم إذ لم يكن أمامه سوى اعتزال أمثالهم من الجبناء والمنافقين إلى الأبد مع الاحتفاظ بعلاقة طيبة مع زميله الذى واجهه بما فى صدره ولم يُخفِ عليه ما أغضبه منه.

(٥٤)

"الخروف وسائق الحنطور"

ثار الخروف ولم يستطع أحد السيطرة على ثورته، أو حتى التعامل معها للتهدئة من روعه. حاول الجميع واحدًا بعد الآخر السيطرة على هياج الخروف، بينما كان الخروف مُصرًا على أن ينطح برأسه كل من يقترب منه بلا خوف أو تردد. فكروا أن يجذبوا انتباهه إلى العشب الذى يأكله دومًا، فيلهيه ذلك لبعض الوقت مما يسمح لهم بالالتفاف حوله للسيطرة على حركته الثورية، ولكنه رفض الطعام معلنًا للجميع سخطه على كل شيء حوله حتى المتاع الوحيد الذى يُقدم له بلا أي مجهود منه أو عناء .. رفضه بكل إباء وكبرياء وكأنه غير محتاج للطعام الذى بدا وكأنه أعلن تمرده عليه على نحوٍ مفاجيء وبلا سببٍ واضح.

استمر ذلك الحال لوقتٍ مرَّ طويلاً على كل من يحيط بالخروف، الذى بات مهدِّدًا لهم بالإفلات من قبضتهم فيحرمهم فراره منهم قبل عدة أيام من العيد الكبير من التضحية به مثلما اعتادوا أن يفعلوا بأترابه فى مثل هذا الموعد من كل عام.

ومع استمرار هذه الثورة العارمة للخروف، لم يُصابوا باليأس من السيطرة عليه؛ بل كان ذهن كل منهم يتفتق فى كل مرة عن أمرٍ ما ربما يكون هو السبب الذى يلين من حدة ثورته، ولكن كل محاولاتهم باءت بالفشل. وفى

ظل ذلك الإصرار العنيد من الخروف على الخروج من الحظيرة، وتلك الرغبة الأكيدة من أصحابه على ألا يتركوا له أية فرصة للهروب منهم، كان المرور العابر لسائق الحنطور المقيم بجوارهم، والذى كان معروفًا عنه هدوء النفس وحسن الخلق. وعندما التفت إلى الخروف الهائج لم يتباطأ فى الإسراع نحوه والاقتراب منه للتهدئة من روعه مثلما يفعل الأب مع ابنه إن أفزعه أمرٌ ما.

وما أن تقدم سائق الحنطور من ذلك الخروف، حتى شمله بلمسات حانية، وقام بضمه إليه مثلما تضم الأم وليدها الرضيع بمنتهى الشفقة والعطف. وبعد ثوانٍ قليلة كان الخروف قد استكان وهدأ وكأنما قد تبدل بخروفٍ آخر، فسارع سائق الحنطور بتقديم الطعام له بحنانٍ لافتٍ للنظر فابتهج الجميع لإقبال الخروف على تناول الطعام من جديد. وما أن انتهى الخروف من وجبته – التى عاد ليراها شهية مثلما كانت فى السابق– حتى كان أصحابه قد باغتوه بالالتفاف حوله مرة أخرى ليعيدوا تقييده بالأغلال التى لازمت قدميه منذ أن قدم إلى حظيرتهم، واستعد الجميع لليوم الذى سيذبحون فيه خروفهم المعتاد.

وبمرور الوقت نسى الجميع أن ما تناولوه من لحم أضحية ذلك العيد كان لذلك الخروف الهائج.

(٥٥)

"فِرار"

اخترقت الرصاصة صدره فسقط صريعًا فى الحال.... اختفى من قتله بين الزحام، ولم يستطع أحد أن يتعرف على القاتل الذى فرَّهاربًا دون أي أثر.

وبعد يوم أوبعض يوم، وأثناء دفن القتيل، تحرك الجسد المُدرج فى دمائه الجافة، وارتدَّت الروح له بعد أن فارقته. فإذا به قد هب واقفاً على قدميه وسط الجموع، التى كادت أن يُغشى عليها من فرط الذهول، ثم بعد ذلك يتنقَّل بينهم متفحصاً إياهم واحدًا تلو الآخر إلى أن وصل إلى رجل مفتول العضلات عريض المنكبين. و ما أن اقترب منه حتى تشبث بجسده صارخًا فى وجهه: "هذا قاتلى ... هذا هو قاتلى". فسقط القاتل على الأرض صريعًا فى الحال بلا حراك من هول المفاجأة بعدما كاد أن يوقن أنه قد نجح فى القتل وكذلك فى الفرارمن العقاب، بينما الحقيقة التى تناساها وغفل عنها ولم يحسب لها حسابًا هى أن جريمته تلك، والتى استطاع أن ينفذها محتجبًا عن الناس فلم يره أحدٌ منهم، لم تكن سوى لعبة دنيوية تقاسم بطولتها مع القتيل، وبمصرعه المفاجئ هذا والذى لم يكن يتوقعه أو يخطر له على بال، تكون قد انتهت تلك اللعبة الذى ظنَّ أنه هو الذى أنهاها بطريقته الخاصة ومهارته الفائقة. فإذا به قد خرج من اللعبة على غِرة ليجد نفسه ماثلاً أمام الحَكم العدل فى مواجهة قتيله البريء لتبدأ محاكمته التى لم يستعد لها أو يكترث بها، ولينال عقابه الذى لن يستطيع هذه المرة الفرارمنه.

(٥٦)

"سقوط الشجرة"

استيقظ من نومه فزعًا على صوتٍ عالٍ ناتجٍ عن ارتطامٍ شديدٍ بالأرض، فهبَّ منتفضًا من فراشه، ونظر من شرفة غرفته ليتبين أن ما سقط على الأرض كان الشجرة العالية التى تلقى بظلالها وأغصانها على شرفة منزله.

لم يصدق ما رآه من هول صدمته، وأخذ يحملق فيها وهى ملقاة على الأرض بلا حراك، ودون أن يشعر لحقت دمعاته بالشجرة لتسقط هى الأخرى على الأرض دون سابق إنذار.

تأمل الشجرة من شرفته وأمعن النظر فى أوراقها الذابلة بعدما كانت تتميز دون سواها من الشجر بأغصانها المورقة وثمارها المبهجة. وفى تأمله لها شعر أنه يتأمل حياة عائلته الكبيرة التى كانت فيما مضى صاخبة وضاحكة، ثم أضحت بمرور السنوات كالشجرة جثة هامدة.

ومثل أغصان الشجرة التى لم تنجُ من السقوط منفصلة عن جسمها، كان أفراد عائلته أيضًا قد هووا جميعًا واحدًا تلو الآخر بعدما فشلوا فى إمكانية عيشهم بمعزلٍ عن بنيان الشجرة الأم. وكما كان لابد بعد سقوط الشجرة الضخمة من عدم بقائها ملقاة على الأرض لتشغل حيزًا كبيرًا منها بلا أية فائدة تُذكَر، كان لا مناص من قدوم من مزقوها وقطعوا أجزاءها فاصلين ما بقى من أغصانها عنها، وباترين لساقها وجذعها أمام كل الناظرين.

واختفت الشجرة من أمام أعين الناس لفترة طويلة، ومع ذلك مثلما كان منهم من محاها من ذاكرته وأخرجها من دائرة حساباته، كان منهم أيضًا من كان يتذكرها بين حينٍ وآخر متحسرًا على فقدانها. وكان هناك كذلك من كان ينتظر بفارغ الصبر أن تكون جذورها المتأصلة فى الأرض على موعدٍ آخر مع الحياة فتتشبث بها من جديد، ويهب ساقها فوق الأرض واقفًا بشموخ ومنتفضًا بحماس بحثًا عن ضوء الشمس، فتتفتح أوراق أغصانها الشابة، وتورق ثمارها الفتية النضرة مع إشراقة صباح يومٍ سعيد. وكان هو من هؤلاء الذين لم يفقدوا الأمل فى رؤية الشجرة مورقة من جديد.

(٥٧)

"تجدد الحياة"

تأمل السماء ليلاً ونهارًا فلم يجد فيها غير قمرٍ يتهلل حتى تكتمل استدارته، وكواكب ونجوم مظلمة ومتلألئة، وشمسٍ ملتهبة ومتوهجة. والتفتَ حوله فوجد من انجذب للكواكب، ومن عشق القمر، ومن احترق من لهيب الشمس، أما هو فلم يكن يبحث عما يراه بعينيه ، بل عما لا يمكن أن يراه بهما، بينما يمكن أن يرى آثار وجوده. كان شغوفًا بمعرفة ذلك الشيء الذى يشعر به يملأ جسده بالحياة، ومع ذلك لا يمكنه أن يراه أو أن يلمسه أو يمسك به.

كان الجميع مشغولين بأجسادهم التى تشغل هى الأخرى حيزًا فى الوجود من الممكن رؤيته، أما هو فكان مهتمًا بالبحث عن سر حياة تلك الأجساد، والذى لا يمكنه رؤيته بعينه. كان بحثه هذا صعبًا وشاقًا، فما لا يُرى لا يسهُل إدراكه غالبًا، ولكن بحثه عن ذلك الشيء غير المرئي الموجودة آثاره والتى لا يمكن تجاهلها كان شغله الشاغل ... فما انفك ليل نهار أن يتسائل: "يا تُرى ماذا يكون؟ وكيف هو شكله؟"

ظل يسأل هذا السؤال كثيرًا، وظل يبحث عنه في كل حي من الأحياء منذ ميلاده وبداية وجوده ووجود الحياة فيه وحتى انتهاء حياته بالموت. ومع البحث والتقصى والتحرى، ثم إعادة النظر وإعادة الفحص، اكتشف أن كل من كان حيًا فيما مضى قد قضى عليه الموت، وأن كل حي رآه وكل من سيحيا فيما بعد وتوهب له الحياة سيكون مصيره الموت لا محالة. وها هى الكواكب والنجوم تظهر وتختفى، وها هو القمر الذى يتغير شكله المرئي فى دورة موقوتة ومتكررة فيُرى بوضوح ليلاً بينما لا يمكن رؤيته نهارًا، وحتى الشمس الأكبر حجمًا، والأضخم كتلةً، والأعظم تأثيرًا تختفى مع إقبال الليل، ولا يمكن رؤيتها إلا مع إدباره وبداية النهار.

وبعد طول بحثٍ وعمق تأمل، خلُصَ إلى أن الموت حقًا يطارد كل حي، وأن من مُنِح الحياة سيقضى عليه الموت يومًا ما، ولكن مع كل موت هناك أيضًا تجدد للحياة. وإذا كان هناك موت بعد كل حياة، فلابد أنه ستكون هناك أيضًا حياة ثانية تعقب الموت مثلما يتجدد الظهور بعد الاختفاء. وإذا كان كل شيء من الممكن رؤيته يتلازم فيه الموت مع تجدد الحياة، فعليه إذن البحث عن ذلك الحي الذى لا يموت والذى لا يمكن رؤيته، وعن الذى لم يأذن الميلاد بوجوده، ولن يكون الموت مصيره، وعن الذى يهب الحياة ويَقضى على من دونه بالموت، وعن القادر على إحياء الموتى جميعًا وإماتة الأحياء جميعًا، وعن الذى خلق الموت وخلق الحياة، وعن الذى أبدع ذلك السر الخفى الذى يحويه جسد الإنسان، والذى بدونه لا يمكنه أن يحيا.

(٥٨)

"سوء تقدير"

وقفوا على الأبواب يهتفون مطالبين بأية وظيفةٍ إدارية (والسلام) ... فلما لم يجدوا من يفتح لهم الباب ليُسمح لهم بالدخول على واحدٍ من آحاد الجالسين على كراسى المنع والعطاء، اعتصموا أمام البوابات، وافترشوا الأرض الحصباء ناسين ما كان يجب لهم من علياء. ولكنها الحاجة التى أجبرتهم على التوسل والرجاء، ودفعتهم للاستجداء، فبعد عشرات الأعوام من الدراسة والبحث واجتياز كافة الامتحانات بأعلى الدرجات، وجدوا أنفسهم بلا عمل ولا دخل ولا مركز، ولا حتى كرسى يحق لهم الجلوس عليه فيكون ذلك مبررًا وجيهًا لقبضهم راتبًا معقولاً فى نهاية كل شهر، ثم انتظارهم معاشًا مقبولاً حال بلوغهم أرذل العمر.

للأسف بعد عناء طويل لنيل أعلى الشهادات، لم يكن ينتظر هؤلاء غير البطالة والتنطع على الأبواب وافتراش الطرقات، لأن دولتهم ببساطة لم تكن فى حاجة إلى ما درسوه وتعلموه، وبالتالى لم توفر لهم المكان الذى ستستفيد منهم فيه. لقد نسوا أن الدولة لم تطلب منهم أن يحصلوا على تلك الشهادات، بل هم الذين سعوا إليها بمحض إرادتهم معتقدين أنها ستعلو بهم لعلوها،

وستدفع بهم للوقوف كتفًا بكتف بين صفوة المجتمع، فإذا بهم وبعد أن كابدوا الأمرّين للحصول عليها على مدار سنوات طوال، بلا مكانة ولا حتى مكان.

ووقف هو من بعيد يرقب المعتصمين وهم ينهون اعتصامهم العنيد الذى باء بالفشل الذريع، ليقول لنفسه: "الحمد لله أننى لم أقف معهم متسولاً لوظيفة تضمنى لصفوف ملايين المسترزقين من البطالة المقنعة، والحمد لله أننى غير مضطر لجلب المال لإطعام أطفالٍ صغار، والحمد لله أننى تعلمت العلم الذى أعلم قيمته، والذى أعرف كيف يمكننى الاستفادة منه بكبرياء وإفادة الآخرين دون توسلٍ أو استجداء."

(٥٩)
"صورة الطفولة"

أنهى كل اجتماعاته ومقابلاته المهمة، ولم يتبق سوى خيوط ضوء رفيعة للشمس تعلن حتمية غياب قرصها المتوهج عن الأفق المرئى. ونظر إلى السماء وهى توشك أن تظلِم فتظلِم معها الأرض إلا من أضواء المصابيح فى الشوارع وأنوار اللافتات الإعلانية. لقد بلغ الخمسين من عمره وما زال ينزعج مع كل غروبٍ للشمس وحلولٍ للظلام، وكأن انسحاب الضوء من الأفق يُنذره بشيء ما يخيفه كلما جال فى خاطره. أوصد باب مكتبه وأغلق معه كل باب يطل منه على صورته القديمة، وهمَّ فى الحال بالذهاب إلى منزله.

دخل غرفته وبدأ بخلع ملابسه، فاجتذبته صورة وجهه فى المرآة وكأنها تشده عنوة ليقف هذه المرة متأملاً لها ومتفحصًا ما طرأ عليها من تغيير على مدار ما مضى من سنوات عمره. حاول أن يلتفت يمينًا ويسارًا متجنبًا إياها ولكنه لم يستطع أن يفر من قبضتها التى أحضرته إليها فى خضوع المستسلمين للجبارين المتغطرسين. ولما لم يجد بُدًا من مواجهة صورته فى المرآة، رفع جفنيه معلنًا إزاحة الستار عن عينيه، ومستسلمًا للنظر أمامه، ليبدأ اللقاء الذى طالما كان يفر منه متحججًا بالظروف تارة، وبالأمنيات طويلة الأمد تارة أخرة، وبانشغاله بما هو أهم تارة ثالثة.

لقد كان يتوقع حرارة ذلك اللقاء المحاط بالشوق لصورة وجهه القديمة، والمُسيَّج بالرفض المستتر لصورة وجهه الحالي. إنه يعلم جيدًا ما طرأ عليه من تغيير، ويدرك لماذا اختفت ملامح براءة الطفولة من وجهه لتستقر مكانها ملامح أخرى قاسية وغريبة عنه لدرجة أن من كان يعرفه صغيرًا لم يكن قادرًا على التعرف عليه إذا رآه الآن. إنه يعلم جيدًا ماذا فعل فى حياته ليصبح ذلك الثرى المختال بثرائه أينما صال وجال، ويعلم جيدًا أيضًا كيف باع نُبله، وصدقه، وشرفه، وسمعته ليشترى بثمنٍ بخس سيارته الفارهة، وبيته الفاخر، ومكتبه الكبير. ويعلم كذلك أنه ليس مجبرًا على أن يستمر فى تلك الصفقة الخاسرة، وأن العودة لوجهه القديم ستكون ممكنة ومتاحة لو انتهز الفرصة التى تهديها له الشمس مع كل يوم تشرق فيه، والتى يراها متجسدة أمامه طوال يومه وحتى نهايته، ولكنها سرعان ما تغيب عن عينيه وتفر من قبضة يديه لأنه لم يمسك بها جيدًا معلنًا عن رغبته المُلحة فى الحفاظ عليها.

(٦٠)

"تلاقى الأرواح"

كانت فى المكتبة كعادتها تطالع كتبًا شتى، فوقع بين يديها كتابه عن الحياة ووصاياه لمن يريد أن يحيا، فلفت انتباهها عنوان كتابه الذى يوجهه لمن يريد أن يحيا. فما كان منها إلا أن وجدت نفسها تعيد نطقها لعنوان الكتاب بداخلها وكأنها تريد أن تستمع كل جوارحها لتلك الكلمات ... كلمات: الإرادة – والحياة – و... وكل ما يعقبهما من كلمات؟!

وبدأت تتساءل وتسأل نفسها: "هل حقًا الحياة إرادة قبل كل شيء؟! أم هى إلزام قسرى لا مفر منه ولا رغبة فيه .. مثلها مثل أشياء أخرى كثيرة فى تلك الحياة قد مرت عليها إجبارًا بلا طعم أو مذاق، ومع ذلك لم تستطع الهروب منها فكانت دائمًا توهم نفسها بالاستمتاع بالقيام بها حتى تنتهى منها، فلا تلجأ بعد ذلك سوى لنسيانها جلها وكأنها لم تكن لتبدأ مرحلة جديدة من الإلزام الإجبارى واللا اختيارى فى دورة تدور عليها وعلى من حولها بلا نهاية سوى الموت؟!"

لقد نطقت تلك العبارة الصادمة بلسانها بعدما أسمعت كل كيانها بها ... نطقت بعبارة: "الإرادة فى الحياة"، فمالت نفسها لحياة لم تحيها بعد، واشتاقت لتحريك القوى الكامنة بداخلها لتستمتع بتفعيل إرادتها "الحرة" ...

نعم "الحرة" ... "ولمِ لا؟! لماذا لا تُفعِّل إرادتها الحرة فى حياتها فتكون هى الحياة التى تختارها لنفسها بنفسها؟"

اخترقت كلمات ذلك الكتاب كل حواسها فاجتازت معها حاجز الزمن الماضى والزمن الآتى، وكأنها وُلِدت من جديد بنفسٍ جديدة ... نفسٍ تعى ما تريد، وتفعل ما تشاء بحرية كاملة، نفسٍ حرة طليقة لا تعوقها الحدود أو تعرقل مسيرتها الشدائد. وما أن انتهت من قراءة ذلك الكتاب حتى بدأت فى البحث عن سيرة حياة مؤلفه، فكانت المصادفة العجيبة أن تكون ذكرى وفاة كاتبه فى نفس اليوم الذى قرأت فيه كتابه عن الحياة، ليبدو لها وكأنه هو الذى يهدى الناس جميعًا فى كل يوم تمر فيه ذكرى وفاته سر الحياة الذى توصل إليه ولم يبخل به على أحد، ليفقهه كل حى يريد أن يحيا، فيسعى جاهدًا لاختيار حياته.

لقد شعرت أنه من فرط رغبة ذلك الكاتب المخلصة فى إنقاذ حياة الناس جميعًا وتحرير إرادتهم، ظلت روحه بعد وفاته ترفرف حول كلماته، لتبعث عبيرها النقى الصادق فى كل مكان، وتنفث شذاها فى كل من له روح تلاقت مع روحه، وبالتحام كيان الأحياء مع نبض عبارات الأموات، تتجدد رحلة الحياة الحقيقية، ويظل كل من حيا بكلمة من كلمات "خالدٍ" الحية يترحم عليه وهو يحمل معه قبس النور الذى سَيهدِى الجميع لجمال الحياة وقيمتها الخفية.

(٦١)

"رجاءً .. الالتزام بالخطة"

فى كل مرة كان يحدث نفس الخلاف وذات الصدام حول ما تم التخطيط للقيام به، ثم تنفيذ ما هو سواه، لا لشيء سوى الاعتياد على التفانى فى التخطيط ثم مخالفة التنفيذ – بسهولة ويسر– لما تم تخطيطه مُسبقًا. إنه ذلك الأمر المستفز الذى يجعلها تستشيط غضبًا فى كل مرة وكأنها المرة الأولى، فلا هى استطاعت كظم غيظها بسبب مخالفة الخطة لما تم تنفيذه بالفعل، ولا من حولها قرروا الالتزام بتنفيذ ما لبثوا بضع ساعات يخططون له دون جدوى أو فائدة.

وكانت فى كل مرة تحاول التماس بعض الأعذار لتهدئ من ثورتها، فكانت تقول لنفسها: "ربما ما يحدث هذا ليس سوى أسلوب حياة ناتج عن أسلوب تفكير، أو هو عادة متوارثة لم يتم دحضها عن طريق التفكير السليم والرغبة فى تحسين الذات وتطويرها."

وأيًا ما كان وصف مسببات ذلك الأمر الشنيع، فهو فى كل مرة كان يصيبها مثلما يصيب كل جاد ومخلص وصادق غيرها بالإحباط وخيبة الأمل. فكم هو قاسٍ على النفس أن تبذل جهدك وتفكيرك فى الإعداد لأمرٍ ما ظنًا منك أن تعبك لن يضيع هباءً، وأن ما بذلته من جهدٍ فى التخطيط سيعقبه تنفيذ دقيق وواعٍ لما تم تخطيطه، فإذا بك تتلقى الصدمة المفجعة بأن من حولك ممن

شاركوك فى التخطيط، لا يكترثون بتنفيذ أى شيء مما تم الاتفاق على تحقيقه ليكون واقعًا لا وهمًا أو خيالاً. وبعد أن هدأت ثورة نفسها وزال غضبها، حدثَّت نفسها قائلة: "إذا كان كل من حولك يا نفسى لا يريدون أن يغيروا من طريقة تفكيرهم أو من أسلوب حياتهم، فليس أمامك أنتِ سوى قيادة نفسك وتوجيهها للتخلص من ذلك الكابوس المزعج."

وكانت تلك هى الكلمات التى حاولت أن تُسكِّن بها ثورتها، وتطفئ بها غضبها الذى يشتعل فى كل مرة وبنفس الطريقة لذات الأسباب. وإذا كان الحل قد أصبح الآن بيدها ويتعلق بها وحدها، فليس عليها من الآن وصاعدًا قبل البدء فى أى عملٍ جماعى سوى التيقن أولاً من جدية المشاركين لها فى التخطيط له، فإن علمت أنهم من أولئك الذين يقولون ما لا يفعلون، فعليها ألا تشترك معهم فى التخطيط لأى شيء، بل تكتفى بتخطيطٍ فردى وتنفيذٍ فردى متجنبة أى عمل جماعى ولو كان ذهنيًا طالما ستدفع ثمنه من أعصابها ولن تجنى منه سوى تعكير صفو مزاجها الذى هى فى غنىً عنه.

(٦٢)

"القدوة"

كان يستذكر دروسه كلها بجدٍ واجتهاد من أول يوم فى كل عامٍ دراسى، وكان مِثله فى ذلك الاجتهاد والتفوق زميله الجامعى الذى اعتاد أن يسبقه فى الترتيب ليكون هو الثانى على الدفعة، بينما يحتل زميله هذا الترتيب الأول عامًا تلو الآخر. وفى يومٍ من أيام الامتحانات فى آخر عامٍ لهما فى الدراسة الجامعية، رأى زميله هذا بعد أن انتهى من الإجابة على كل الأسئلة، يغشش أحد الزملاء من ورقة إجابته، فاستهجن ما رآه من غشٍ يشترك فيه الطالب الأول على الدفعة، ويقوم به عن طيب خاطر، ظنًا منه أنه طالما سيحصل على الدرجة النهائية فلا مانع من مساعدة من يريد النجاح وفقط.

وفور الخروج من لجنة الامتحان رأى زميله (الأول على الدفعة) يقترب منه، فبادر بمصافحته والحديث معه عن الامتحان وما جاء فيه من أسئلة. وأثناء الحديث تعمَّد أن يفاتح زميله فى موضوع الغش الذى رآه، ليسأله عن سبب قيامه بهذا العمل بطيب خاطر ملحوظ، ووعيٍ لافتٍ للنظر. فما كان منه إلا أن أجابه بثقة أميل إلى المباهاة بأنه لا يجد أية غضاضة فى أن يغشش زميله المحتاج للنجاح فى هذه المادة خاصة وأنه قد انتهى من الإجابة على كل الأسئلة بسهولة ويسر. فتعجب من ذلك المنطق، وأوضح لزميله أن الغش يشترك فيه

الغاش والمُغشِّش والمراقب الذى يرى عملية الغش ولا يمنعها، ولا يبرره أن يكون المُغشِّش لن يخسر شيئًا من تغشيشه لغيره طالما أنه متأكد من حصوله على الدرجة وأن الغاش لن يحصل على درجة أعلى منه.

وعلى الرغم من كون الغش غشًا (حتى لو كان بنية طيبة وهى مساعدة الآخرين على النجاح وعدم الرسوب)؛ إلا أن الطالب الأول على الدفعة استحل ذلك النوع من الغش معتبرًا إياه مساعدة بريئة مسموحًا بها، ولم يعترف بأن فعل الغش الذى اشترك فيه إنما هو إثمٌ عظيم حتى لو كان عن تراضٍ بين الغاش والمُغشِّش.

واستمرت تلك القناعة مع الطالب الأول على الدفعة الذى تم تعيينه فيما بعد معيدًا فى الكلية ليساهم فى تعليم الدفعات الجديدة، دون أن يدرك أن جريمة الغش تلك كانت غشًا لكل من اجتهد وذاكر ولم يغش، وكانت تعديًا على قانون الامتحان الذى يهدف إلى المساواة فى تقييم الطلبة وفقًا لما استذكروه لا لما غشوه من غيرهم. وكما أن العلم أمانة يتطلب أداؤها الاجتهاد فى التحصيل والصدق فى التوصيل، فإن التعليم والتربية أيضًا يتطلبان بالضرورة قدوة صالحة يُقتَدَى بها، وتكون على قناعة بقيمة الأمانة وعواقب الغش أيًا ما كان.

(٦٣)

"سلام بالإكراه"

بدأ بالسلام بعدما خرج من شقته مُغلقًا بابها، ومُهمًا بالنزول على درجات السلم غير ناظرٍ إلا إلى أسفل، ومكتفيًا بإلقاء السلام على جاره المسن دون أن يَرَى منه وجهه أو حتى مقدمة جسده.

ولكن جاره المسن لم يردّ عليه ذلك السلام، فسارعه بصيحة سلامٍ آخر ولكن هذه المرة بصوتٍ أعلى يكسوه التأنيب المتسلط ومحاولة التهذيب المتحدية لمن تجرأ ألا يردّ عليه تحية السلام من المرة الأولى. فقال له بعصبية ونبرة مُستفِزَّة: "ما ترد السلام يا أخى ... رُدّ السلام يا حاج !!"؛ وفى أثناء ذلك كان جاره المسن قد بدأ بالفعل الرد عليه بهمةٍ .. قائلاً له: "وعليكم السلام ورحمة الله"، ولكن جاره لم يسمعه لأنه كان متربصًا به ومسرعًا بتعنيفه على عدم ردّ السلام عليه فى المرة الأولى.

وفورًا أدرك الجار المسن مدى التعنيف الذى بدر من جاره الأصغر منه عمرًا ومكانة، وإلقائه السلام عليه بصيغة آمرة ومنفرة، فى حين أنه كان قد انتهى بالفعل من رد سلامه الثانى والذى استطاع أن يسمعه بخلاف السلام الأول، الذى لم يستطع سماعه نظرًا لضعف سمعه. فلم يكن منه إلا أن أعقب

سلامه عليه مندهشًا من سلوكه معه قائلاً له باستنكار: "أنا بالفعل أقول لك وعليكم السلام ورحمة الله".

وانتهت بذلك تحية الإسلام المعروفة بالسلام بين الجارين، بينما كاد الجار المبادر بالسلام – والمشتعل غضبًا – مستمرًا فى نزوله السلم مرددًا كلمات غاضبة غير مسموعة وغير مفهومة.

وأثناء نزول الجار المسن فيما بعد على درجات السلم ببطءٍ – كعادته – أخذ يحدث نفسه عما صدر من جاره الذى اتضح تربصه له، والذى اهتم بأداء "فرض" أو "واجب" السلام، ولم يلتفت إلى أنه لم يلقِ ولو نظرة واحدة مسالمة على وجه جاره المسن، ولم يلتمس له أي عذر لعدم ردّ السلام عليه فى المرة الأولى؛ بل بدا كالمتربص بفريسته المترقب منها أى خطأ ليكون ذلك مبرِّرًا له بأن يلقى عليه قذائف كلماته الغاضبة البعيدة كل البعد عن نية السلام والمسالمة والتسالم، والمُنمة عن حقدٍ دفين وغضبٍ مكتوم تجاه جاره، واللذين يسترهما بتحية سلام مصطنعة تخرج من تحت الضرس كأداء لواجبٍ تفرضه اللياقة أو يحبذه الدين الذى يعلن وجوب الخيرية لمن بدأ بالسلام.

وأيقن الجار المسن وهو يُحدِّث نفسه أن جاره إذا كان غير متمسكٍ بآداب إلقاء السلام على خير وجه سرًا وعلنًا، فإن ذلك مرجعه هو عدم تفهمه لمعنى السلام ومغزاه، إذ أن المبادرة بإلقاء تحية السلام على من تعرفه ومن لا تعرفه تمنح القلب السكينة وتُخلص النفس من أية ضغائن أو أحقاد، فإن صدقت

السريرة، سيخرج سلام المرء الداخلى عن طريق لسانه لينتقل إلى من حوله بسلاسة وارتياح، أما فى حال كان الهدف من إلقاء تحية السلام هو الظهور بمظهر لائق يستحسنه الناس مع إخفاء المشاعر الكارهة للغير، فعدم صدق ذلك السلام سيكون على العكس هو السبب الرئيس فى تفجير الغضب الكامن. وإن كان بالفعل الهدف من إلقاء تحية السلام هو نيل الثواب من الله وليس انتظار الرد عليه من الناس، فستخلص بذلك النوايا، ولن يدقق أحد فى مراقبة رد فعل الآخرين الذى لن يُقلِّل من الثواب، فى حين ينبع ترقبه من الكِبر الذى يتمكن من أصحابه حينما يتصورون أنفسهم هم الأجدر بالاحترام، والأصوب فى كل فعلٍ يبادرون به حتى لو كانوا غير صادقين فيه.

(٦٤)

"انتحار"

همت بعبور المزلقان ولكن القطار أطلق صافرته من بعيد معلنًا عن قدومه السريع كى يحترس الجميع فيتوقفوا عن العبور مفسحين له الطريق. وبالفعل تراجعت للوراء قليلاً مبعدة جسدها ورأسها عن مشهد القطار المخترق لكل ما سيواجهه. وبينما كانت تديررأسها للأمام، إذا بأصوات صارخة من حولها لم تفهمها، وحركات غير عادية للأشخاص المجاورين لها، وكأنهم هبوا جميعًا مرة واحدة لعبور المزلقان كما لو كان هناك مغناطيس ينجذبون إليه بلا إرادة أو وعى.

تقدمت للأمام مع من تقدم وحاولت أن تتفهم كلمات الناس المتداخلة مع بعضها البعض، فإذا بها تسمعهم يقولون : "لقد ألقى بنفسه أمام القطار ليدهسه!" ... لم تستوعب ما سمعته حولها فى بادئ الأمر، إذ أنها لم تشعر إلا وجسدها ينتفض انتفاضة شلت حركتها وأوقفت عقلها عن التفكير. وقبل أن يصيبها الغثيان فور أن بدأت تفهم ما حدث حولها، بادرت بالسير للأمام للابتعاد عن مشهد القتيل الذى دهسه القطار المسرع رغبة منها فى عدم رؤية ما آلت إليه جثته من تمزيق لأوصالها وتقطيع لأجزائها، ولكنها وجدت بجوار قدميها يده وقد انفصلت عن ذراعه بل وعن جسده كله وملقاة أمامها مدرجة

فى دمائها، فكاد أن يُغمَى عليها لتسقط بجوار القتيل، ولكنها حاولت أن تتماسك لتعود لمنزلها.

وطوال طريقها للمنزل لم تستطع أن تمنع عينيها من البكاء، أو أن توقف رعشة جسدها الذى ألزمته أن يقاوم سقوطه على الأرض لحين وصولها لمنزلها. وما أن طرقت الباب الذى فُتِح لها لتدخل شقتها، حتى دخلت فى نوبة بكاء حادة وهى تقص ما حدث على والديها. لم تكن تصدق ما حدث أمامها حتى وهى ترويه بلسانها على أنه واقع لا خيال. لقد سبق لها بالفعل أن شاهدت حوادث انتحار فى الأفلام السينمائية، ولكنها لم تكن تتخيل أنها سترى حادثة انتحار حقيقية بلا أى تمثيل.

نعم .. لقد انتحر ذلك الشخص الذى رأت كفه مدرجًا فى دمائه على المزلقان ... لقد ألقى السيجارة من يده واتجه مسرعًا ليلقى بنفسه أمام القطار ليدهسه وفقًا لما رواه شهود العيان حولها... لقد تخلص من حياته بمحض إرادته، ومع سبق الإصرار والترصد ... لقد فعل ما فكر فيه كثيرون غيره والذى خطر على بالها هى أيضًا عدة مرات وأقدمت عليه بطريقة صبيانية ذات مرة وفشلت ليظل ذلك الخاطر يراودها من حينٍ لآخر كلما ضاقت بها الدنيا بما رحبت، وضاق صدرها بما يحمله على عاتقه من ضيق وضجر.

كان مشهد حادثة الانتحار التى وقعت أمامها هى النذير ربما الأخير لها لتتخذ قرارها بألا تهرب هى الأخرى من الحياة، بل عليها مواجهتها بشجاعة

وصمود متحدية كل الصعاب ومتفائلة بما هو خير مما هى فيه، ولمَ لا؟! وقد أصبح لديها مع الوقت أملٌ فى الصعود، وتوَلد بداخلها رجاءٌ فى اللقاء، واكتشفت أن وجودها فى الحياة ليس عبثًا أو هباءً، بل لعله بداية تكريم لها ومرحلة اختبار لا مفر منها لإثبات مدى جدارتها بالصعود لعالم الخلود الذى كان لابد أن تستعد له قبل الوصول إليه حتى تكون قمينة للعيش فيه والتمتع به. نعم لقد قررت ألا تلجأ للهروب باعتباره الحل الأسهل لأية مشكلة والوسيلة المريحة للابتعاد عنها وعدم اقتحامها. فالهروب هو قرار مبكر بالفشل، وإحجام متعمد عن مجرد المحاولة، بينما الحياة هى فرصة يغتنمها من يدرك قيمتها، ويفرط فيها من يعجز عن مجرد التفكير فى الحكمة منها.

وكيف نزعم عدم تجدد الحياة مع بداية كل يوم جديد تشرق فيه الشمس كل صباح؟! وكيف يمكن لنا ادعاء تأكدنا من عدم وجود شيء اسمه "الأمل"؟! برغم تعاقب الليل والنهار فى كل يوم وليلة ليشهدان على تجدد الأمل! ... الأمل فى تغيير الأحوال أو تبدلها أو تحولها ... والأمل فيما بعد الحياة التى ستنتهى حتمًا بالموت.

إن هذا الذى أنهى حياته بنفسه اكتفى من الحياة بما رآه فيها من صعاب وفشل وكرب وعجز، ولم ينشغل بذكر من هو قادر على أن يبدل صعابها وفشلها وضيقها وكربها بسعادة لا تنتهى، وبهجة لا حدود لها، وسرور لا ينقطع، ونعيم لا ينفد .. وكيف لا يقدر على ذلك واهب الحياة وخالق الإنسان .. والذى بيده ملكوت كل شيء؟!

(٦٥)

"سُعار المجد"

لم يكن ينتهى من حوار تليفزيونى حتى يبدأ حوارًا إذاعيًا، ولم يكن يفرغ من حديثٍ صحفى حتى يبدأ مقابلة هامة مع أحد المسئولين الكبار. كان يومه كله مليئًا بكلامٍ لا ينفد، فالجميع ملتفون حوله يتهافتون لسماع كلامه حتى لوكان أغلبه قد كرره مرارًا وتكرارًا، ولكن حديثه الشيق لم يترك أية مساحة للملل أو للفتور، كما أن شخصيته الجذابة كانت تجبر الجميع على الإنصات والتركيز.

ومضت الأيام والسنوات والأضواء تزداد بلا انقطاع، حتى تغيرت الأحوال وتبدلت الأوضاع، فانحسرت الأضواء وخفت بريقها وضجيجها، وندرت اللقاءات تعبيرًا عن قلة الاهتمام بتلك الشخصية الفذة التى عشقت الكاميرات وأدمنت المقابلات والحوارات التى تلقى فيها بدلوها فى كل الأمور برؤية ثاقبة ونافذة لا يجوز التعقيب عليها أو نقدها وتفنيدها.

وكشأن كل إدمان يتملك من الإنسان، فتقهره العادة وتسيطر عليه فى إذلال، أراد صاحبنا المشهور أن يظل على حاله من الظهور والتألق والتأنق فلا تغادره الكاميرات أو تعرض عنه الميكروفونات إلا وهو ملقىً على جنبه مدفونًا فى قبره، لذا قرَّر أن يكون له قبْرٌ فخم ذو بناءٍ ضخم ليتناسب مع ما أوصى به من جنازات عديدة تستوعب الآلاف الكثيرة التى سترافقه إلى مثواه الأخير،

والتى للأسف ستغادر سريعًا مقبرته الأنيقة مع بقية أهله وأبنائه، لينغمس كلٌ فى حياته لعبًا ولهوًا، أو تعلمًا وتعليمًا وعملاً، أو جمعًا لمالٍ، أو تحصيلاً لشهرة، أو استحواذًا لنفوذٍ أو استئثارًا بسلطة.

غادر الجميع لتنحسر الأضواء بلا رجعة، وتُغلق جميع الميكروفونات بلا عودة، فتذهب الشهرة التى كانت تسعده، وينطفئ نور المجد الذى طالما سعى إليه، ولا يبقى لصاحبنا أى شيء يصطحبه معه فى نومته العميقة داخل مقبرته الأنيقة سوى أعماله الخالصة من طلب الدنيا بمجدها وشهرتها، ومالها وزينتها، ونفوذها وعِزتها. إنه عمله وحده الذى سيرافقه بعد رحيله، والذى سيمكث بعده فى الأرض إن كان نافعًا لينتفع به من أراد الانتفاع، ويستفيد من ثمرته كل محتاج.

(٦٦)

"لا تتعجل الابتعاد بعد اقتراب"

نِعمٌ كثيرة لم يكن يدرك أنها لديه، لأنه لم يكن مشغولاً سوى بما حُرِم هو منه ويتمتع به غيره ممن حوله. لم تكن نظرات عينيه تقع إلا على ما يفتقده، مُعرضة كل الإعراض عن كل ما يمتلكه. فحرمته نظرته تلك من راحة البال، وسكينة النفس، وجلاء الخاطر، وصفاء القلب، وتسبب نكرانه لما لديه من نعمٍ شتى فى نقصانها يومًا بعد يوم، إذ كان بحثه الدائم عما مُنِع عنه وحُرم منه بدايةً لطريق كفرانه بالنعم الأخرى التى أسبغها خالقه عليه، بينما حَرم آخرين غيره منها. فانتهى ما بدايته النكران وعدم الشكران إلى الخذلان والفقدان.

وتحول القرب إلى ابتعاد، لأن الدعاء كان لنيل العطايا والهبات، لا رجاءً فى رضا المعبود، أوأملاً فى الوصال غير المقطوع. ولما توقف الشكر، كان من الطبيعى أن يتوهج كل فُجر، ومع ذلك كانت رحمة الخالق سابقة لغضبه، وحِلمه محاطًا بلُطفه، فكان التمهل على العباد لحين عودتهم للتوَّاب، وأوبتهم لقابل الذنب قبل حلول العقاب.

وبالفعل عاد العبد لرب العباد الرحمن الوهاب، وأناب للرحيم الغفار، شاكرًا لأنعمه غير مكترثٍ بما حرمه أو بما منعه ، بل أضحى مشغولاً بتوظيف أية نعمة عنده ليستفيد منها كل من حوله.

لقد أدرك قبل فوات الأوان أنه الآن ليس فى عالم النعيم ودرجاته، بل هو فى دنيا العمل والابتلاء، وبما أن الجميع إلى زوال إلا وجه الرحمن، فحياته القصيرة ليست للاستغراق فى الملذات، أو لطلب الكثير من الأموال والمزيد من الأولاد، بل هى للاستزادة من الباقيات الصالحات، وطلب رضوان الحنان المنان، وشكره على ما أعطى وعلى ما منع شكرًا يُرضى الرزَّاق، الذى يهب من يشاء بغير حساب، ويُعِّد من اصطفاه من عباده لرفع درجاته وإعلاء مكانه فى جنات تجرى من تحتها الأنهار.

(٦٧)

"الإذاعة المدرسية"

بداية كل يوم دراسى كانت ذات طابع خاص لديها منذ أن كانت فى الصف الرابع الابتدائى وحتى عامها هذا الذى أصبحت فيه فى الصف الثانى الثانوى، فقد كانت عضوًا نشيطًا وبارزًا فى الإذاعة المدرسية التى منحتها شهرة فى كل مدرسة تلتحق بها، ليس فقط بين طالبات المدرسة؛ بل أيضًا بين مُدرسات المدرسة، فأضفى ذلك بريقًا خاصًا عليها فاق بريق تفوقها الدراسى وحصولها على المراكز الأولى فى نهاية كل عام. وبينما كانت المُدرسة المسئولة عن الإذاعة المدرسية مشغولة فى ذلك اليوم ببقية فقرات اليوم الإذاعى كالعادة؛ كانت هى تحاول أن تلفت انتباهها لتُحضِّر معها ما ستتلوه من آيات قرآنية ستفتتح بها الفقرات الإذاعية، ولكنها تركتها تختار من الآيات ما تشاء دون أن تراجعها معها ثقةً فيها وفى سابق خبرتها وتمرسها على مدار سنوات عديدة ماضية.

وبدأت فقرات الإذاعة المدرسية، وكانت البداية معها كالعادة بآيات ستتلوها من الذكر الحكيم على مرأى ومسمع من المَدرسة بكامل طالباتها ومُدرساتها وقتما كان للطابور الصباحى مكانته المقدسة ومنزلته التى لم يكن يتصور أحد أن تصل لما هى عليه الآن. وللمرة الأولى أخطأت فى التلاوة لا عن سهوٍ عابرٍ أو عمدٍ مفتعلٍ؛ بل عن جهلٍ غير متعمد. فكانت نتيجة خطئها – الوارد حدوثه– أن كانت وكيلة المدرسة هى من صححت لها ما قامت بتلاوته

على نحوٍ خاطئ فى التشكيل بطريقةٍ مهينة لها أفقدتها الثقة بنفسها أمام الجميع. واسترعى انتباهها وأثار حفيظتها ما سارعت به مُدرستها المسئولة عن الإذاعة بإعادة تصحيح خطئها أمام الجميع وكأنها كانت قد لفتت انتباهها له من قبل أثناء الإعداد للفقرات الإذاعية؛ بينما لم تقم هذه المُدرسة بأى مجهود للإعداد، متخلية بذلك عن مسؤليتها فى الإشراف، والتى لم تستحضرها إلا أمام رئيستها فى العمل (أى وكيلة المدرسة) لتظهر أمامها بمظهر من أدى عمله على خيروجه دون تقصير، ومن ثم تقع مسئولية الخطأ برمته أمام الجميع على الطالبة وحدها.

وفعلاً بدت الطالبة وكأنها هى المخطئ الوحيد أمام الجميع فى كلمة بسيطة كانت قد قرأت ما هو أصعب منها مرارًا وتكرارًا. ولأن المهم دائمًا أن يكون كل شيء تمام التمام، فلم يكن يشغل المُدرسة سوى تبرئة ذمتها أمام رئيستها فى العمل. وكذلك الوكيلة بدورها لم تكترث سوى بتصحيح الخطأ بغض النظر عن الأثر النفسى السيء الذى أحدثته فى نفسية الطالبة التى لم يسبق لها الظهور بهذا المظهر المحرج على الملأ. ومضت الأيام والشهور، ولم يهتم أحد بانقطاع هذه الطالبة بعد ذلك عن الإذاعة المدرسية، لوجود البديلة السريعة والجاهزة التى أضحت تخطىء مرة بعد مرة، ومع ذلك لا يلتفت أحد من أساتذة المَدرسة لتصحيح أخطائها، ربما لأنه لم يكن يستمع لها أحد من الأساس، فكانت تقول كل ما تشاء!

(٦٨)

"انغماس"

نظر لأخيه وهو يحمل رابع مولود له بسعادة غامرة يكسوها الزهو والافتخار بكثرة ذريته وتنوعها بين ذكورٍ وإناث، فكانت تلك هى المرة الأولى له التى يسترعى انتباهه ذلك الأمل الذى يمنحه الأطفال لآبائهم وأمهاتهم فى كل مرة يعلنون فيها للجميع خروجهم للدنيا وبداية وجودهم فى العالم الأرضى.

فمع ميلاد طفلٍ جديد تشرق شمس أملٍ طويل المدى وممتد لأجلٍ بعيد يرجو أصحابه ألاَّ ينقطع عنهم. ومع هذا الأمل تتجدد الحياة وتستمر الرحلة ويتابع كلٌ كفاحه للبقاء قدر المستطاع. ومع الأيام ربما يضيق الحال، وتتزايد أعباء التكفل برعاية ذلك الأمل، ويصبح من العسير بذل مزيد من المجهود لاستكمال مسيرة نموه، فتخفت السعادة، ويذبل شباب الوالدين، وتُنهَك قواهم، فيتضاءل الحلم الذى كان كبيرًا، ويكتفى الجميع بأقل القليل فى كل شيء ما عدا أن يتكاثر نسلهم ليملأ الأرض حتى لو ضحوا فى سبيل ذلك بحياة أكثر رغدًا وأقل شقاءً.

لم توقظ لحظة ميلاد الطفل الرضيع حالة من الأمل فى الحياة لكل الموجودين بما فيهم عمه، الذى بلغ المشيب دون أن يتزوج أو تكون له ذرية، بل دفعت أيضًا ذلك العم فى كهولته تلك أن يفكر فى مآله ومآل كل مولود جديد بعد أن يكبر، ثم يشيب ويصبح فى حالة انتظار لنهاية حياته الحتمية، مثلما

تنتظر الأم الحامل لحظة خروج طفلها الوليد للحياة بفارغ الصبر. واستمرت معه تلك الأسئلة، وظل هو يفكر ويتساءل: "ماذا بعد كل ميلاد ونمو إلا المشيب والعجز.. وماذا بعد الحياة بكل ما فيها إلا الموت والقبر.. وماذا بعد الموت؟ ... وماذا يمكن أن يكون من أمل لما بعد الموت؟ .. وماذا لو لم يكن هناك أمل؟"

ظلت تلك الأسئلة تموج فى خاطر العم الذى ترك العنان لعقله لأول مرة ليتأمل كنه الحياة التى عاش فيها طويلاً، ويتدبر غايتها، ويعيد التفكير فى غايته هو منها، بعيدًا عن زهو السعادة، وعزّ الافتخار، والتعلق بطلب المزيد من كل متاعٍ زائلٍ فى الدنيا.

(٦٩)

"ضد التشويه"

لم يلتفتوا قط إلى سر تفوقه على أقرانه، ولم يعيروا انتباهًا قط إلى حجم إنجازاته، بل شغلوا أنفسهم بصرف معجبيه عن الاحتفاء به، وتأمل حياته، والاقتداء بكفاحه. وبدلاً من أن يقدموا قصة صعوده كمثالٍ يقتدى به الشباب من النوابغ والمبدعين، انشغلوا بالبحث عن عوراته التى من الممكن أن يسلطوا عليها الضوء فتشينه أمام كل من يرى فيه نموذجًا للكفاح والنجاح.

ومن الطبيعى أن يكون أؤلئك الفارغون من أى قدر من الجمال عاجزين عن رؤية أى جمال فى أى شيء حولهم، وبالتالى لن يمكنهم أبدًا مشاركة الآخرين فى التمتع بما هو جميل. ولقد تولى هؤلاء فرادى ومجتمعين القيام بدور كتيبة الإعدام لكل جمالٍ وتفردٍ وإبداع، حتى أنه لو كان أيٌ من الجمال أو الإبداع أو التفرد أو التميز رجلاً، لألقت كتيبة الإعدام تلك القبض عليهم جميعًا، ولحكمت عليهم بالشنق فى ميدانٍ عام ليكونوا عبرةً لمن يعتبر. ومن فضل الله على كل مبدع أن جعله محطِّمًا لكل القيود، ومتحررًا من كل الأغلال، ومجتازًا لكل العقبات، ومتسلقًا على كل غلٍ وحقدٍ وضغينة. ولولا فضل الله هذا لما عمرت الدنيا بحضارة تلو أخرى، ولما رأينا النوابغ والمبدعين فى كل مكان.

ومع ذلك الانتصار المستمر للإبداع والجمال والنجاح والتميز، ظلت كتائب الإعدام تباشر حقدها الأسود وغلها العقيم دون انقطاع، وكأنها ليست سوى حرب باردة بين النجاح وأعدائه لا يؤذن لها بانتهاء، ولا يمكن أن يتخللها غير هدوء الزوابع العاصفة، وتربص الذئب القابع فى الظلام استعدادًا للانقضاض على فريسته فى لحظة غفلتها عنه.

ولم تكتفِ كتيبة الإعدام هذه المرة بمحاولاتها المتكررة للانقضاض على ذلك المبدع، أو إعاقته عن الاستمرار فى تفوقه وتفرده أثناء حياته، بل قامت فيما بعد بشن حربٍ ضروس عليه بعد موته؛ كى تفض أسراب الطيور المهاجرة من ظلمة الفشل والقهر والظلم عن الالتفاف حول أي بصيصٍ للنور يلهمها أن تكمل طريق كفاحها للنهاية بروح يغمرها الأمل والتفاؤل. وكانت تلك الحرب الدنيئة التى كرست لها كل مهاراتها هى أقصى ما يمكن أن تحققه هذه الكائنات الأشبه بخفافيش الظلام لاصطياد نجاحات المبدعين، واستلاب مجد كفاحهم، وانتهاك حرماتهم استحلالاً لعوراتهم.

وستستمر مطاردات نابشى القبور مع حلول كل ظلام لكل مبدعٍ إنسان ولكل فكرٍ يدفع بالناس للأمام، وسيمضى الإظلاميون يجرون ثوب الهزيمة أثناء حياة المبدعين وبعد موتهم، فبرغم توارى أجسادهم عن الأنظار، سيظل نور إبداعهم قادرًا دومًا على مواجهة أية كتيبة إعدام، وعلى محو كل ظلمة يريدونها للعقل وللقلب وللروح.

(٧٠)

"القِصاص"

اشتعلت القرية الصغيرة بحمم الثأر والإصرار عليه بعد مقتل ابن عمدتها الشاب اليافع صاحب الوجه الممتلئ بسبب نزاعات مادية بين عائلتين لم يكن هو طرفًا فيها، ولكن الرصاصات الطائشة غالبًا ما تصيب الأبرياء ممن لا ذنب لهم، ولا ناقة لهم ولا جمل. وما أن علم عمدة القرية بخبر مقتل ابنه خطأً حتى ثارت ثورته، وهاجت أوصاله، واشتعل وجهه غضبًا، وهمَّ متوجهًا لقتلته محتميًا بحراسته ومتلفعًا بأكابر أسرته ليطالب بكل قوة وعنفوان بالثأر لمقتل أصغر أبنائه، الذى لم يمضِ على زفافه سوى بضعة أيام.

لم يكن عمدة القرية أو أي كبير من كبراء عائلته ليرضى عن القِصاص بديلاً، رغم تأكد الجميع من أن الرصاصة التى أصابت ابن العمدة لم تكن سوى رصاصة طائشة لم يستهدف من أطلقها خطأً ابن العمدة، أو غيره من أبناء القرية، ومع ذلك تعاطف أهل القرية جميعًا كبارًا وصغارًا مع عمدتهم المكلوم، والتفوا حوله محاولين تهدئته، وإطفاء نيران غضبه المشتعل على قاتل ابنه، دون تجرؤٍ من أى منهم على طرح موضوع المصالحة المبنية على المسامحة.

وبينما كان أهل القاتل وعصبته وعصبيته يتبادلون الحديث مع العمدة، راجين منه التنازل عن فكرة القِصاص لابنه المقتول خطأً، تقدَّم بين

الجموع عم "سلامة" الفلاح الفقير، الذى قُتِل ابنه الوحيد منذ عام أثناء خروجه وسط الجموع الغاضبة والمطالبة بحقوقها الإنسانية العادلة.

ومع مقتل العشرات ودفنهم على مرأى ومسمع من أهل القرية جميعًا، لم يتقدم العمدة أو غيره من مسئولى الأمن فى القرية ليواسوا عم "سلامة" وأقرانه من أهالى القرية فى مقتل أبنائهم غدرًا، بل تناسى الجميع الأمر مع الوقت، ولم يجرؤ أحد على المطالبة بالقِصاص لشهداء الحرية، على الرغم من أن الثورة آنذاك كانت ثورة الملايين، والهياج الشعبى كان مشتعلاً فى كل مكانٍ، والرصاصات التى خرجت لتصيب المتظاهرين لم تكن رصاصات طائشة، أو طلقات أطلقت فى الهواء لتفريق الجموع دون إحداث إصابات قاتلة بهم، بل كانت تستهدف قتل الأبرياء، الذين كان إثمهم الوحيد هو تجرؤهم على الخروج فى وجه الظلم والطغيان مطالبين بالعدالة التى تمكنهم من الحصول على حقوقهم المشروعة، والكرامة التى أصبحت حكرًا على كل صاحب نفوذ وسلطان، والعيش الكريم للسواد الأعظم من الشعب المطحون فى معاناته مع الفقروالجهل والمرض.

لم يطالب أحد من أهالى القرية وسادتها بالقِصاص للمئات المقتولين غدرًا والذى كان من بينهم ابن عم "سلامة"، بينما تكاتف الجميع تضامنًا مع عمدة قريتهم فى إصراره على عدم التنازل عن القِصاص لابنه المقتول خطأً.

(٧١)

"عاقبة التدليل"

لم يكن فى حياتها سوى اهتمامها المبالغ فيه بأبنائها الثلاثة، ولم يكن يشغلها سوى التفانى فى إسعادهم حتى ولوعلى حساب راحتها. كان يومها يبدأ مبكرًا لإعداد طعام الإفطار لهم، ولم تكن تهنأ بتناول كوب الشاى التى اعتادت عليه كل صباح، إلا بعد أن تتأكد أنهم جميعًا قد سعدوا بإفطارهم المجهز لهم دون بذل أى مجهود منهم فى إعداده، وكأنهم ما زالوا أطفالاً صغارًا ليس عليهم سوى الذهاب للمدرسة والاجتهاد فى المذاكرة وحسب.

وشبَّ الأبناء الثلاثة وكادوا أن يشيبوا، ولم تزل أمهم ترعاهم وكأنهم مواليد جدد فى حاجة لمن يعد لهم الطعام، ويقدمه لهم ممضوغًا إن استطاع. كانت تلك التضحية المبالغ فيها سببًا فى سعادة الأم ظنًا منها أنها من الممكن أن تتحمل بدلاً من أبنائها مشقة القيام بأى عمل لتوفر لهم الراحة والهناء مدى الحياة. وبالفعل استمتع أبناؤها براحة لا مثيل لها، وخلدوا إلى الركون إلى أمهم فى كل شيء، فتخرج ابنها الكبير من الجامعة، ولما لم يجد عملاً، لم يحاول أن يفعل شيئًا قط انتظارًا منه لمساعدة أمه التى كانت معه كظله. ولم يكمل ابنها الثانى تعليمه لأنه عزم على الاستفادة من تجربة أخيه، وقرر ألا يجهد نفسه فى تعليم لن يوفر له عملاً مناسبًا، بينما حظوظ الدنيا التافهة تحاصره من كل اتجاه ليستمتع بحياته فى لهوٍ ولعبٍ مع أقرانه المدللين والمرفهين. وابنتها

الصغيرة ظلت بجوارها هى الأخرى لم تفارقها لأنها كانت تهاب فكرة الزواج التى لا محالة ستضعها فى مواجهة حتمية مع الحياة بكل مسئولياتها الصعبة وكل تبعاتها الشاقة، التى لم تبخل أمها عليها بتحملها نيابة عنها طوال الوقت.

(٧٢)

"باقة زهور"

هدموا منازل الحى العريق الذى تحول إلى منطقة عشوائية مكتظة بالسكان، ولم يبالوا بما أصاب أسره الفقيرة من ويلات التشتت والفقدان. وصدرت الأوامر بانتقالهم إلى مخيمات للإيواء لحين الانتهاء من بناء شقق صغيرة لهم فى مساكن تضمهم جميعًا. ومضت عدة سنوات وتحول الحى العريق من منطقة عشوائية إلى تجمع راقٍ مليء بالأبراج الشاهقة التى لا يسكنها سوى الأثرياء وعلية القوم، ولا يجرؤ أحدٌ من البسطاء أو الفقراء على الاقتراب من أسوارها العالية، ولا يطمح فى دخولها إلا كعاملٍ أو خادمٍ أو سائق. وبينما ظل سكان الحى الأصليون يقيمون فى مساكن الإيواء التى انتقلوا إليها من المخيمات، ويعانون من نقص الخدمات الفوقية وانعدام البنى الأساسية التحتية، كان الأثرياء الجدد يتنعمون بكامل سبل العيش المُرفه فى الحى الذى انمحت معالمه القديمة، وتشتت سكانه، واختلفت صورته، وتبددت ذاكرته، وتبدلت ذكراه وذكرياته.

وخرج ذات يوم رجل الأعمال الفاحش الثراء على الفقراء من قاطنى الأحياء المجاورة لتجمع أبراج الصفوة المسورة هذه، ليعلن لهم أن مصيرهم سيكون مثل مصير من سبقهم، وأن عليهم إخلاء مساكنهم القديمة لينتقلوا

إلى مساكن جديدة فى مناطق أخرى بعيدة، حتى يتم التوسع فى منطقة الصفوة الحديثة والتى ضاقت أسوارها على ساكنيها.

ومثلما قبِل الفقراء بالأمس أمر الإخلاء بتسليمٍ وإذعان، قبِل جيرانهم فقراء اليوم نفس الأمر بنفس الخضوع ونفس الاستسلام، فيما عدا قلة منهم وقفوا يهتفون ويعترضون ويرفضون الخروج معتصمين فى منازلهم، فكان مصيرهم أن دفنوهم تحت أنقاض مساكنهم، ثم نقلوا أشلاءهم مع ما نقلوه من ردم البنايات القديمة المتهالكة إلى مناطق النفايات فى الصحراء البعيدة الشاسعة.

وبعد شهورٍ قليلة أقيمت الاحتفالات ودقت الطبول ابتهاجًا بافتتاح توسعات تجمع الصفوة وأبراجه الشاهقة، ونُثِرت باقات الزهور فى كل مكان داخل الأسوار، باستثناء باقة زهور واحدة آثر صاحب الأبراج الجديدة أن يحملها إلى الفقراء الذين طُردوا من حيهم القديم، ليقدمها لهم وهو يخبرهم أمام وسائل الإعلام أنه سوف يوفر لهم فى المستقبل القريب ما عكفوا على المطالبة به منذ سنوات من أساسيات الحياة الكريمة التى حُرموا منها، بعدما أمِروا بالخروج من ديارهم والرحيل عنها وعن ماضيهم بلا عودة أو بقايا ذكرى.

(٧٣)

"البُرص"

دخل "سليم" غرفته وهمَّ بإطفاء الأنوار استعدادًا للخلود إلى النوم، فإذا به يلحظ على الحائط بُرصًا كبيرًا واقفًا بلا حراك وكأنه يريد أن يلقى عليه تحية ما قبل النوم. فكانت تلك التحية من هذا الكائن الزاحف هى خير مُنبه له كى يظل مستيقظًا طوال الليل خوفًا من أن ينقض عليه هذا الحفيد الصغير للديناصورات فيقف على أى جزء من جسده بينما هو مستغرق فى النوم. ومكث "سليم" ليله فى معظمه فاتحًا لعينيه محدقًا فى البرص الذى يبدو أنه قد قرر احتلال جدار غرفته لوقتٍ طويل دون تفكيرٍ فى التحرك أو إقدامٍ على الخروج.

وأثناء تلك الليلة التى غمرها قدرٌ كبير من الترقب والاستنفار، استرجع "سليم" من ذاكرته ما حدث له وهو صغير، عندما فاجأه أحد زملائه فى المدرسة تعليقًا على الانتهاكات ضد أهالى فلسطين والمسجد الأقصى قائلاً له: "إن هذا هو عدونا" .... فانتبه إلى ما سمعه منه ولم يفهمه، وبادر بسؤاله: "ماذا تعنى بعدونا؟! .. أليس هناك معاهدة للسلام بيننا وبينه؟ وأليس هناك معاملات اقتصادية، وشراكات مالية، وصفقات بيع وشراء، واستثمارات وصادارت وواردات؟ ألم نعلن توقف الحرب وبدء حالة السلام؟!" فقال له زميله: " نعم نحن فى سلام معه ... ولكن هذا لا ينفى أنه ما زال عدونا .. عدونا

الذى لم نعد نراه كعدو .. فلم نعد نستعد لمواجهته أو نترقب غدره .. عدونا الذى تم إخفاؤه عن أنظارنا كى تختفى معه قصة عداوته لنا، وينمحى من الذاكرة تاريخه معنا .. عدونا الذى سالمناه ثم سلَّمنا له أنفسنا طواعية .. فتقدم هو وتخلفنا نحن، وأنتج هو واستهلكنا نحن، وتعلم هو وعلَّم أبناءه واستسغنا نحن مذاق الجهل والأمية حتى ألفناه.. عدونا الذى أصبحت له الكلمة فلا نملك نحن سوى أن ننصت له ولأعوانه فى صمت."

استعاد "سليم" كل هذا الحوار كلمةً كلمة وهو يحملق فى الجدار الذى يقف عليه البُرص، وقال لنفسه: "يبدو أن هذا البُرص كان معى فى شقتى منذ أيام، ولكننى لم أستعد له مثلما أنا الآن، وسبب ذلك بكل بساطة هو أننى لم أكن أراه، وبالتالى لم يصبح فى حسبانى وجوده من الأساس، وما أن رأيته وظل ماثلاً أمام عينى حتى هممت بالتربص به وترقب حركاته اتقاءً لشره، واستعدادًا لمواجهته. ويبدو أن هذا أيضًا هو سلامنا الذى حولناه امتثالاً لمعاهداتٍ ورقية منذ عقود إلى حالة من الاستسلام يشوبها استعداء دفين يطفح على السطح من وقتٍ لآخر بلا معنى أو روح؛ لأننا منذ أن غيبنا حقيقته عن مسامعنا وأبصارنا، أصبح عدونا بالنسبة لنا هو والعدم سواء.

(٧٤)

"مسئولية الاختيار"

أصرت والدتها أن تخرج لمقابلة العريس الذى تقدم لخطبتها فى الموعد الذى حددته مع عائلته دون أن تأخذ رأيها، وكان عليها طاعة والدتها حتى تبدو بمظهر لائق أمام قريبتها التى توسطت فى هذه الخطبة المرجوة. وبالفعل خرجت إكرامًا لوالدتها التى اعتادت بين حينٍ وآخرأن تفرض عليها مقابلات كتلك تكون هى خلالها فى غاية السعادة لكثرة خطَّاب ابنتها أملاً منها فى رؤية وحيدتها وهى ترتدى ثوب الزفاف الذى كانت مستعدة أن تدفع فيه أى ثمن ليكون هو الأجمل بين كل فساتين الزفاف التى رأتها فى كل أفراح قريناتها.

وكشأن كل أم تسعد بأى رجلٍ مهذب يتقدم لخطبة ابنتها ويكون من أسرة ميسورة الحال وحاصل على شهادته من كلية من كليات المرحلة الأولى، كانت والدتها فى غاية السعادة لأن الرجل المناسب من وجهة نظرها قد دق الباب راجيًا موافقة ابنتها. وهذه الموافقة لم تكن باليسيرة على فتاة مثلها فى مقتبل العمركان الجميع يتوقعون خطبتها مبكرًا، وكانت قريباتها وصديقاتها يعقدن المقارنات بين من تقدموا لخطبتهن وتمت موافقتهن عليهم بلا تردد، وبين كل من يتقدم لخطبتها هى ومع ذلك لا توافق على الارتباط بهم.

وفى ظل معاناة طويلة من اتهامها بجحود النعمة وعدم شكرالله عليها، وسجالات كثيرة مع والديها حول عاقبة رفضها لعرسان مثل هؤلاء يُعتبركل

واحدٍ منهم فرصة قد لا تتكرر خاصة مع تقدم العمر بها، كانت هى غير مكترثة بما قد قيل لها، وما قد يقال عنها، لأنها لم تكن مثلهم تنظر للزواج على أنه فرصة يجب عليها أن تنتهزها قبل فوات الأوان، بل كانت تعى أن الحياة ذاتها هى فرصتها التى يجب ألا تفرط فيها، أما الزواج فكانت تترقب حدوثه مثلها مثل أية فتاة لا لتثبت فيه وجودها الحر خارج بيت والديها، أو لتنعم بسببه بالنعيم الذى كانت محرومة منه، أو لتشعر من خلاله بكامل أنوثتها كامرأة ثم بكمال نضوجها عندما تصبح أمًا، بل كان الزواج يعنى لها السكن الذى ستهدأ فيه نفسها ويستكين معه كل كيانها فى حماية رجلٍ بحق يتكاملان معًا دون أن ينتقص من قدرها .. يحتويها ولا يفرط فيها .. يحتضن طموحها ولا يخيب رجاءها .. يحترمها ولا يهينها .. يضيف وجوده فى حياتها إليها، ولا يكون عبئًا عليها .. رجلٌ يستوعب فكرها المتقد باحثًا معها عن إجابات موضوعية واعية لكثير من الأسئلة التى يطرحها بروحٍ متجددة وعقلٍ حر وقلب مستنير.

ومضت السنوات، وتحققت نبوءة من لاموا عليها رفضها لأكابر العرسان الذين تقدموا للزواج منها، وسخَر الجميع من إصرارها على حلمها الذى لم يتحقق، وظن القاصى والدانى أنها قد خسرت مستقبلها الأسرى بتمسكها بأملها الذى كانوا يرونه وهمًا، بينما ظلت هى غير نادمة على ما مضى، بل متفائلة بما سيأتى، وأنه يومًا ما حتى لو لم تتزوج بمن يغمر قلبها حبًا، ومن يملأ عينيها فخرًا، ومن يثرى عقلها فكرًا، ستظل قمة سعادتها فى أنها عاشت حياتها مثلما أرادت أن تحياها منتصرة على كل القيود الهادمة لمعنويات

البشر، والمحطمة لطموحهم، والمستعبدة لإرادتهم الحرة، والخانقة لأحلامهم الرشيدة.

وها هو سر سعادتها يكمن فى أنها تمكنت من أن تحيا حياتها هى، دون أن تكون نسخة مكررة من كل من حولها بلا تفكير أو حتى إعادة نظر، وأنها ناضلت بشجاعة من أجل حياة هى وحدها من تقرر كيف تحياها بسعادة متحملة ثمن كل نفس تتنفسه فيها بحرية مسئولة وعزيمة موصولة.

(٧٥)

"روح الفريق"

الكل كان مُصرًا على تسديد الهدف وحده دون سواه، والجميع كان معتقدًا أن من يسدد الهدف هو صاحب الانتصار الأعظم دون غيره من أعضاء الفريق. كان العمل يتطلب عددًا كبيرًا من المشاركين، ومع انضمام الجميع لإتمام ذلك العمل، لم يفكر أحد فى المهمة المطلوبة منه، وانشغل الجميع بالقيادة وبريقها الآخاذ والسالب للعقول، سواء بسبب ما فيها من سيطرة على الجموع طوال الوقت، أو بسبب ما تمنحه للقائد من وقوف فردى فى المقدمة لنيل التهانى لحظة النصر.

أراد كل من بالفريق أن يكون هو القائد الذى يسدد وحده الهدف النهائى فى المرمى، وظن كل فرد من أفراده أنه وحده من يحمل سمات القائد، فتنازعوا على القيادة، ولم يقبل أى منهم أى دور آخر فى الفريق. لم تكن وحدة فريقهم هى غايتهم المنشودة، بل حل محلها ما سيعود على القائد من مزايا فى حالة الانتصار والوصول للأهداف.

ومع كل جولة خاضها الفريق، كان القاسم المشترك بين الجميع هو الحزن بعد الهزيمة مرة تلو الأخرى. وفى كل مرة كانوا يبحثون عن أسباب عديدة للهزيمة، ولم يكن من بينها حالهم هم داخل الفريق. ومع آخر هزيمة لهم التفت أحدهم إلى أنهم ليسوا فريقًا متكاملاً، بل أضحوا فريقًا مشتتًا هدفه

قد ضاع بين الصراعات المتأججة حول منصب القائد الذى يريده كلٌ لنفسه دون الآخر. وبسبب ذلك التنافس حول القيادة، والغرام بالوقوف المنفرد أمام عدسات المصورين، والأنانية المفرطة فى نسبة كل انتصار للقائد وحده دون بقية الفريق، وعدم قبول أحد بأى دور غير دور القائد، لم يعد هناك فريق من الأساس، وحُرِم الجميع فيما بعد من كل الأدوار، ليظل كل واحدٍ منهم مستمتعًا بقيادته لنفسه وفقط، ومتأملاً لصورته وهو واقفٌ وحده فى صورةٍ بلا أية معالم أو أدنى قيمة.

(٧٦)

"السمعة مقابل المال"

فى اللحظة التى مكثت فيها وحيدة فى زنزانتها المليئة بالمجرمات واللصوص، والتى كانت البداية لليالٍ طويلة وسنوات كبيسة ستمضيها وحدها بدون أسرتها، بدأت تفكر فى سنوات عمرها، التى أمضتها فى العمل ولا شيء سواه، وفى أبنائها التى كانت هى العائل الوحيد لهم، والتى لم تكن حريصة إلا على توفير كل احتياجاتهم المادية برغم ضيق حالها وضعف صحتها خاصة مع كبر سنها. ومع كل ذلك الحنان المفرط عليهم، ورغبتها الدائمة فى إسعادهم، اكتشفت أخيرًا أن علاقة أبنائها بها لم تتعدَ كونها بالنسبة لهم سوى علاقة المُموّل بمشروعه، الذى لا يُراد منه سوى الإمداد بالمال ولا شيء سواه طوال الوقت.

وبمضي الأيام وتعاقب السنين والأعوام أصبحت احتياجات أبنائها فى ازدياد كل يوم، ومن ثم أصبحت هى خارج البيت طوال الوقت، ولا تعود إليه إلا لتستريح قليلاً فى منتصف الليل قبل استئناف عملها فى فجر اليوم التالى. ومع عجزها عن تلبية احتياجات أبنائها التى أصبحت مسئولة فور انتهائهم من دراستهم عن تزويدهم بجميع متطلبات زواجهم، عرض عليها أحد جيرانها فكرة الاقتراض من ذلك الثرى صاحب معرض السيارات الذى يقرض أى مبلغ مالى لكل محتاج. وبالفعل ذهبت إليه، وخضعت بإذعان ودون تفكير لشرطه لها

بتوقيع إيصالات أمانة بمبالغ أكبر من المبلغ الذى اقترضته منه، وتصورت أنها ستستطيع السداد مع الوقت، ولكن المبالغ المطلوبة منها كانت أكبر بكثير من دخلها البسيط الذى أصابه النقصان بعدما أصاب جسمها النحيل الضعف والهوان.

وبين عشية وضحاها وجدت نفسها فى صفوف المجرمين واللصوص، ولم تشفع لها سمعتها الطيبة وسيرتها الحسنة التى عاشت فى كنفهما على مدار سنوات بين الأهل والجيران، ولم تتمكن أي منهما من التوسط لها لإنقاذها من افتراس محترفى النميمة وهاتكى ستر الأعراض، بل لم تجد فى محنتها هذه أيًا من أبنائها واقفًا بجوارها ليساعدها على التخلص من ويلاتها، أو ليهون عليها بعضًا من مصاعبها. فأمضت سنوات سجنها تلوم نفسها بشدة على ما اقترفته من ذنبٍ فى حق تلك النفس التى قررت فى يومٍ ما بلا تفكير أن تضحى بأثمن ما تمتلكه من أجل من لا يستحق.

(٧٧)

"لسنا مستنسخين"

انتظرت مولودها الأول بفارغ الصبر بعد عدة أعوام من عدم الإنجاب، ولما احتضنته بين يديها شعرت أنه ليس كبقية الأطفال، ومع ذلك لم تلتفت لما يميزه عن غيره من الأطفال؛ لأن فرحة تحقق الأمانى البعيدة شغلتها عما سواها من أمور. وبعد عدة أشهر بات الأمر الواقع ماثلاً أمام عينيها ليل نهار، وواضحًا فى غير حاجة لاستنكار. ومع كل يوم كانت تقلب فى وحيدتها الرضيعة، كانت تنتظر أن يتغير ما كان بها أو يتبدل حالها، ولكن دون جدوى، فلم تجد أمامها سوى عرضها على الطبيب المختص ليتابع حالتها، ويدلها على الطريقة السليمة للتعامل معها.

كانت صعوبة تقبل الأم لوضع ابنتها المختلف عن بقية الأطفال ليس بالأمر الهين عليها ولا على زوجها، الذى لم يكن يتصور أن تكون ابنته الوحيدة، التى طال انتظاره لها، طفلة غير طبيعية، بل طفلة مريضة ستصاحبها علتها هذه طوال حياتها، لذا ليس أمام الجميع سوى الامتثال للأمر الواقع، وتقبله بسكينة واطمئنان، والاستعداد كل يوم للتأقلم معه بلا غضبٍ أو قنوط.

لم يجد كلا الأبوين غير سلاح الرضا والصبر ليتسلحا به طلبًا للسعادة التى ظنا أنهما سيحصلان عليها مع قدوم مولودهما الأول، فإذا بها قد فرت منهما هربًا بدون أية رغبة منها فى تلبية الاستدعاء. ولم يكن أيٌ من الرضا أو الصبر صديقًا

لأحدهما إلا بعد سنوات من عمر ابنتهما الصغيرة التى أخذت تكبر، ويكبر معها فهم والديها لكون البشر ليسوا مستنسخين، بل هم بالفعل مختلفون. فكل إنسان منهم هو فرد واحد يمكن تمييزه، كما يمكنه هو أن يتميز عن كل من سواه، إذا أراد لنفسه ذلك التميز فى الحياة، فيعزم بقوة أن يختار لنفسه وبنفسه التمسك بحياته، مقدرًا لنعمة وجوده حتى لو كان ذلك الوجود ذا هيئة وشكل لم يخترهما لنفسه، ومُدرِكًا أن منحة الوجود هذه يتساوى فيها مع غيره من الموجودات، بينما نِعَم الحياة المتعددة قد قُسِمت بين البشر جميعًا بقدْرٍ مقدور لا بالتساوى، فيختلف كل واحد عن غيره فى قدْر كل مفرد من مفرداتها، بينما يتساوى الجميع فى مجموعها.

(٧٨)

"انتظار الخلاص"

كان متسرعًا فى كل شيء فى حياته بدءًا من قرارته غير المدروسة، ونهاية بعاداته وهواياته التى لم تكن تمكث معه طويلاً حتى يصاب منها بالملل، فلا يلبث أن يتركها منجذبًا لغيرها. وهكذا كان حاله مع طقوس العبادة، الذى يمكن وصفه بأنه ارتباط متقطع ومتلازم دائمًا مع غاية ما أوهدف بعينه، وما أن تتحقق هذه الغاية وذلك الهدف حتى يتجاهل الالتزام بما ألزم نفسه به من طقوس تعبدية إلى أن يهجرها برمتها جميعًا لحين تجدد غاياته وبزوغ أمنيات جديدة له.

لم يكن يتلمس روح أى شيء يُقبِل عليه، بل كان مكتفيًا بظاهر الأشياء، التى ما أن يقوم بتجربتها عن قرب، حتى يكتشف سطحية نظرته للأمور، وتسرعه فى الحكم الذى كثيرًا ما كان يوقعه فى مشاكل متتالية. وحتى هذه المشاكل لم يعتد أن يتحمل مسئولية حلها بنفسه، بل كان يلجأ لمن يتكفل بحلها نيابة عنه، إذ كان تسرعه الملحوظ مصاحبًا لما ينتظره من نتائج، أما كل ما هو بخلاف ذلك من عملٍ ودأبٍ واجتهادٍ وكفاحٍ من الممكن أن يُطلَب منه فكان يُقبل عليه بدرجة من البطء والتباطؤ يفقدان أى عمل قيمته ويمنعان حصاد ثماره.

وعندما وجد نفسه ذات مرة فى مواجهة حتمية مع الحياة، بلا كفيل أو وكيل أو نائب أرضى، عاد للارتماء بكل حمولته فى أحضان السماء، لعله يجد المَخرج الأخير الذى يخلصه من ضرورة المواجهة التى عكف على الهروب منها. وبدأ رحلته من جديد مع الدعاء من أجل الخلاص، والتى كان لابد فيها هذه المرة من التزامه بالصبر والإخلاص. ومع الدعاء وجد نفسه مضطرًا قبل الحصول على الخلاص أن يستدعى ما ألفته نفسه من كسل كان يبعده عن العمل وعن بذل أى مجهود، لعله يستطيع منحه القدرة على الصبر المطلوب لإجابة دعائه للخلاص والتخليص بسرعة على يد منقذ ومخلص يقذف له طوق النجاة بلا عناء منه أو اجتهاد.

ومع الانتظار، تباطأت حياته كلها بكل ما فيها حتى تحقيق الأمنيات الذى اعتاد أن يصل إليه فى الحال وبلا مجهود، والتهى طويلاً، فلم يفكر فى هروبه الدائم من المواجهة، ولم يلتفت إلى طفولته التى لم تنته بعد، والتى كان من ضمنها طفولته التعبدية التى تشبه التصاق الطفل المدلل بوالديه، وما يغمره من سرور عظيم كلما قاما أحدهما أو كلاهما بتلبية كل طلباته ورغباته بلا استثناء، وما يعتريه على النقيض من بكاء وغضب إذا رفضا كلاهما تحقيق مطلب واحد فقط من مطالبه الكثيرة.

ومع الاستغراق فى ملهاة الانتظار المبعِدة عن كل عمل تعلقًا بالأمل، لم ينشغل بالتفكير بعمق فى حاله هذا، بل كان كل ما يشغله هو البحث عن مخرج يقيه حتمية مواجهته لنفسه. ولأنه كان مُصرًا على الهروب منها كعادته، ظل هو ذلك الطفل المدلل، الذى حتمًا لن يجد منذ الآن من يهتم بتدليله، ولكنه

ألزم نفسه بالانتظار، وسيظل منتظرًا ما لن يأتيه أبدًا، مثل جميع من يودون الاستمرار فى مرحلة الطفولة والتدليل.

وبخلاف هؤلاء، هناك دومًا السعداء من البشر، الذين يسعون للنجاح فى حياتهم، والذين يدركون فى الوقت المناسب وقبل فوات الأوان أن الطفولة ليست سوى مرحلة تمهيدية فى حياة الإنسان تنتظر بفارغ الصبر الالتحام بالمرحلة الأكثر أهمية منها، وهى مرحلة النضج التى يجب فيها على الإنسان أن يتحمل مسئولية قراراته الناتجة عن اختياراته، فيتخلص من طفولة الانتظار– انتظار المنقذ وانتظار المخلص. وبدلاً من أمنية الانتظار هذه التى لا يضمنها أى يقين، يبدأ الإنسان من هؤلاء السعداء حياته الحقيقية على الفور، والتى يعتمد فيها على نفسه وعلى ما سيكتشفه من ملكاته، وما ستكشفه له الأيام من قدراته، فيسعى جاهدًا للتمسك بحريته وعدم التفريط فيها حتى يتمكن من الإمساك بزمام خياراته، وتحمل نتائج قراراته، والاستمتاع بحصيلة نجاحاته المعتمدة على تفعيله لمهاراته وقدراته.

وتلك هى الحياة الحقيقية التى لم يستطع كل منتظر لأملٍ بلا عمل أن ينعم بها. فلو لم تكن هناك حرية للإنسان تمكنه من الاختيار، لما كان مطلوبًا منه أى عمل أو تعمير للأرض، ولما كان لإرادته الحرة أى وجود، ولكان انتظاره للمخلص وللكفيل وللوكيل وللنائب بديلاً معقولاً عن قانون الحساب على العمل ثوابًا وعقابًا، ولتوقفت الحضارة البشرية عن أهم ما يميزها من تجدد وما تمتاز به من عطاء.

(٧٩)

"قـــرار"

وعدها أنه سيبذل قصارى جهده ليكون إنسانًا جديدًا، وأنه سيتخلى فى أقرب وقتٍ ممكنٍ عن عيوبه التى تزعجها فيه، ومضت الأيام والشهور والسنوات، ولم تلحظ فيه أية بادرة تغيير توحى لها بأنه سيفى بوعده. كانت وعوده لها ليست سوى كلمات، أمَّا سلوكه معها فكان يناقض كل وعدٍ من وعوده. وكانت هى فى كل مرة تستكين إلى عذوبة كلماته رغبةً منها فى تصديقه، رغم تكراركذبه عليها، وكان هو قد اعتاد تهدئة غضبها بكلماته التى لم يملّ منها على مدار سنوات، ولم تتعلم هى إلا أن تصدقها بكل أمانٍ وثبات.

وذات يوم قررت أن تتخذ قرارها بوقف تلك اللعبة التى ظل زوجها يتمتع بها معها موقنًا أنه سيستمر فيها بنجاح، وواثقًا أنها ستظل دومًا حصن الأمان الذى سيطفئ به لهيب ثورة زوجته كلما اشتعل. وكان قرارها، الصادم له والنهائى بالنسبة لها، هو إمهالها له بضعة أيام معدودة ليثبِت لها عمليًا صدق عزمه على الوفاء بكل وعوده المؤجلة بتغيير نفسه. ومضت الأيام مثلما مضت كل المهل السابقة بلا نتيجة، كما توقعت، ولم يكن فى انتظار زوجها سوى قرارها النهائى بالانفصال، والذى كانت قد اتخذته بالفعل بعد خبرتها الطويلة وتجاربها العديدة مع إنسان اعتاد أن يعد ولا يفي، وأن يقول ما لا يفعل، وأن يفعل عكس ما يقوله. فكان ذلك الانفصال هو البداية لها فى حياة جديدة خالية من الكذب، والنهاية له مع إنسانة كان من الممكن أن يتغير سلوكه على يديها.

(٨٠)

"أنانية"

كانت طفلة صغيرة عندما قدمت إليهم من قريتها الفقيرة. كانت فى سن اللعب والمرح واللهو والمتعة، ومع ذلك وجدت نفسها فجأة تقيم فى منزل غير منزلها، ومع أناس لا تعرفهم، بعيدة عن أمها وأخواتها وجيرانها. قال لها خالها وهو يأخذها تحت ذراعه: "اسمعى الكلام يا بنتى .. وما تزعليش حد منك". فنظرت إليه فى اندهاش ولم تكمل نظرتها له حتى وجدته قد اختفى من أمام عينيها لتجد نفسها وحيدة فى مكان غريب عليها.

كان أهل ذلك المنزل طيبين كفاية معها، ويعاملونها برفق وحنان نظرًا لصغر سنها، حتى أنها كانت تلعب وتلهو فى أحيانٍ كثيرة مع بنات صاحب المنزل اللاتى كن فى مثل عمرها تقريبًا. ولم يكن لعبها أو لهوها يستمر لفترة طويلة إذ كانت ما أن تبدأه حتى تطلب منها صاحبة المنزل طلباتها اليومية المعتادة واحدًا تلو الآخر. ولم يكن فى مقدورها سوى أن تنفذ وصية خالها فلا تعصى أمرًا لأحد، أو تتذمر من أى عمل تؤمَر بتأديته، أو يكون لها رفاهية أن تصحو من نومها بلا عملٍ مطلوب منها إنجازه على نحو مرضٍ لمن طلبه منها. كانت لا تستطيع أن تخرج من المنزل إلا لشراء احتياجات الأسرة، ولم يكن من المسموح لها أن تذهب إلى الحدائق أو الملاهى إلا بصحبة أصحاب المنزل كخادمة لهم تؤدى لهم طلباتهم، لا كطفلة تشتاق للعب والمرح والجرى مثل كل الأطفال.

وذات يوم مرضت مرضًا لم يتصور أصحاب المنزل أنه مرض خطير، فتهاونوا فى العناية المبكرة بها، وطُلِب منها أن تكتم آلامها وألا تظهِر أوجاعها علانية حتى تستطيع القيام بعملها الذى اعتادت عليه كل يوم. وبمرور الأيام خارت قواها، ولم يعد لديها المزيد من قوة التحمل، فانطلقت منها صرخات آلامها كالرصاص المسجور، فملأ المكان بدويٍ لا ينقطع، معلنًا نفاذ صبر الطفلة التى فاقت آهات مرضها كل توقع بشفائها إذا لم يتم عرضها على الطبيب فى الحال.

وكانت المفاجأة أن الطفلة مصابة بمرضٍ عضال، وتحتاج للإقامة فى العناية المركزة مما سيتطلب مبالغ مالية باهظة لم تستطع أسرتها الفقيرة تحملها، ولم تتطوع الأسرة التى استخدمتها بدفعها لها، فكانت النتيجة أن خرجت الطفلة الصغيرة من المستشفى إلى منزل والدتها، الذى عادت إليه أخيرًا مثلما كانت تحلم دائمًا، ولكن للأسف دخلته هذه المرة بلا حراك. فقد تمكن المرض من جسدها النحيل ولم تعد لديها أية مناعة لمقاومته والتغلب عليه، فسقطت صريعته وصريعة قلوب اعتقدت طوال فترة خدمتها لأصحابها أنها قلوب حنونة عليها ورحيمة بها، ولكنها فى الحقيقة كانت قلوبًا لا تعرف معنى الرحمة إذ حرمتها مرةً من طفولتها مقابل منفعتهم الشخصية، ولم تعرف معنى الشفقة مرة أخرى وهى تتخلى عن علاج مرضها الذى كان سببًا فى موتها والذى كان فى نفس الوقت سببًا فى خلاصها مبكرًا من شقاءٍ كانت ستعيش فيه طوال حياتها.

(٨١)

"صمت وحرمان"

"أبدًا لن أقول، وأبدًا لن أُصرح. ستظل مشاعرى دفينة فى قلبى، ولن أسمح لعينيَّ مرة أخرى أن تسترق النظر إليها حتى لو كانت واقفة أمامي مثلما حدث من قبل، ومع ذلك سأظل دائمًا أحاول أن أسعدها حتى وهى لا ترانى أمامها.".

كانت تلك هى كلماته التى أسرَّ بها لنفسه، والتى لم تختلف عن كلمات العاشقين الذين قرَّروا أن يكملوا حياتهم بعيدًا عمَّن أحبوا رغم احتفاظهم بحب لهم يملأ قلوبهم ويفيض ألمًا وعذابًا كلما حاول أن يطفو على سطح أيامهم. وكانت تلك هى المشاعر والأحاسيس التى لم يُقدَّر لها أن ترى النور، أو أن تشع أملاً وبهجة فى كل شيء حتى فى الذرات الصغيرة الموجودة حولنا ولا نراها. و مثلما أمضى هو أوقاتًا طويلة لإعداد شيء يسعد به من أحبها ليرى ابتسامتها تشع أملاً فى كل من حولها، مكث صديقه هو الآخر أيامًا وليالٍ طويلة يستحضرها فى خياله، فسطر حبه لها شعرًا بديعًا أخذ ينقحه يومًا بعد يوم حتى تحين الفرصة المواتية للتصريح بعشقه لها وولعه بها. ولم يستطع المحب الشاعر أن ينتظر أكثر من ذلك، فانتهز الفرصة التى يبوح فيها بمشاعره لحبيبته، وبالفعل عرض عليها أشعاره البديعة التى كتبها فيها، وطلب منها أن تقرأها بمفردها.

ورغم رقة كلماته فيها، وعذوبة مشاعره الفياضة تجاهها، ورغم خجلها الشديد الذى كاد أن يمنعها من مصارحتها له بحقيقة مشاعرها تجاهه، إلا أنها آثرت أن تواجهه بالحقيقة الصادمة له، ولكن بطريقة لائقة حرصًا عليه.

ووقعت واقعة الصدمة التى كانت تخشاها عليه، فهزت أوصاله بعنف، رغم محاولته التظاهر بالتماسك أمامها.

وبعد عدة أشهر أفاق المحب الثانى من صدمته فى حبه الأول، وأخبر صديقه بما كان من حبيبته، التى لا يعلم أن صديقه هو الآخر يحبها مثله ولكن فى صمت وكبرياء إذ أصر– وهو من أحبها أولاً– على عدم البوح للحبيبة المشتركة بينهما بما فى صدره من مشاعر دفينة تفيض تضحية ووفاءً خوفًا من أن يواجه نفس مصير صديقه الذى أحبها وصارحها بحبه، فصدمته برفضها.

وبمرور الأيام نسى صديقه حبه الأول القديم، بينما ظل هو عازمًا على محاولة إسعادها، حتى لو لم يظهر فى الصورة أمامها، مؤثرًا ألا تعرف أبدًا مدى حبه لها، ولا أنه هو الذى كان دومًا سببًا فى إسعادها، ولا أنه سيظل حبيبها الذى لن يعترف بحبه لها يومًا، ولن يطمع أبدًا فى أن تتواصل مع مشاعره النبيلة تجاهها، ليظل هو الوحيد الذى سبق الجميع فى حبه لها وفاق كل التوقعات فى التفانى من أجلها.

(٨٢)

"الحرية حياة"

تعالت الهتافات تهز أسوار السجون: "أخرجونا من الزنازين لنتنفس النسيم العليل، ونبصر الضوء المنير"... ولكن الأوامر التى أملِيت على السجان الواقف أمام كل زنزانة كانت تقضى بعدم إطلاق سراح أى من المسجونين، بل مراعاة الاحتفاظ بهم أحياء مهما تمكَن المرض من أجسادهم، أو نهش الجوع فى أحشائهم. ومع مضى الوقت كانت الزنازين تضيق بالمسجونين، حتى كادت تخنقهم وتختنق معهم. ومع ارتفاع ضجيج الآهات واختراق الصرخات لكل حاجز يمنع وصول الصوت، لم يكن أحدٌ فى الخارج يريد أن يلتفت لما يحدث داخل هذه الزنازين من فوضى وهياج، بل ظن كل من بالخارج أن كل اشتعال بالداخل سينطفئ ذاتيًا بمضى الوقت، ومهما تأججت نيرانه فسيظل كل من بالخارج فى أمان.

واستمرت الهتافات ولم تنقطع برغم ضعف بنيان أصحابها وهزال أجسادهم، واستمر إحكام أقفال الزنازين، واحتقار كل من بداخلها، واستمرت الحياة خارج الزنازين تعج بالنشاط والحيوية، وتضج بالبذخ والإسراف. ومثلما استمر الموت ينهش أجساد الفقراء والمحتاجين خارج الزنازين، وينهى حياة الضعفاء والمقهورين وراء أسوارها، استمرت الحياة أيضًا بلعبها ولهوها تداعب المختالين والمفتونين، وتبسط كل أياديها للعالين والمتنعمين. ولم يكن

يقطع تواصل ذلك الاستمرار المسلَّم به سوى رغبة مالكى الزنازين فى الاطمئنان بين حينٍ وآخر على أسراهم ومسجونيهم المقيدين بالأغلال والمكبلين بالأصفاد؛ ليُطلِعوا العالم من حولهم أنهم أنفسهم مستعدون لإطلاق سراح كل سجين وأسير شريطة أن يكون هو على استعداد تام لتحمل تبعات حريته، وقادرًا على الوفاء بمسئولياتها.

وفى نهاية كل زيارة للسجون كانت الكلمات المحفوظة، والثابتة بمرور السنين، من السجانين لنزلاء الزنازين هى ما أعلنوه على الملأ من أنه قد تم تأجيل منح الحرية للمسجونين لحين استعدادهم لها، واستحقاقهم إياها، فى حين كانت هناك جملٌ أخرى أسروها فى أنفسهم، ولم يطلعوا أحدًا عليها، ولم يجرؤوا على إطلاق سراحها خارج أفواههم، ومفادها هو: أنه إذا كان سيتم إعادة غلق الزنازين على نزلائها المأسورين لحين صدور قرارنا بشأنهم حال تأكدنا من حالة استعدادهم لمنحهم حرياتهم، فسنعيش نحن الحياة التى تفتح ذراعيها للقادرين عليها، والمحبين لها، والمضحين بالغالى والنفيس من أجلها، ومن ثم المستحقين لها، وغير الخاضعين لمن يمنحها لهم أو يمنعها عنهم.

(٨٣)

"الشعرة البيضاء"

لم تكن فقط شعرة بيضاء تتلألأ وسط سواد شعرها المنسدل على ظهرها، بل كانت علامات عديدة أحست بها وغدت تخبرها كل يوم أنها لم تعد تلك الفتاة العشرينية أو الثلاثينية الشابة التى كانت تفتح ذراعيها لحياة كانت فى أحلامها وخيالها أرحب بكثير مما عاشته وتعيشه بالفعل. وفى كل مرة كانت تنظر فيها فى المرآة، لم تكن تلتفت سوى لتلك الشعرة البيضاء التى بدت وكأنها مصباح أبيض يومض أمامها كلما لمحته عيناها فى المرآة.

فى بداية اكتشاف أمر تلك الشعرة الدخيلة كان الحل الوحيد للتغلب عليها هو إزالتها كأي كائن غريب وسط جموعٍ مختلفة عنه، ومع الوقت وبظهور كائنات أخرى بيضاء اللون ومشابهة لذلك الكائن الدخيل وسط الجموع السوداء، كان تفكيرها سيتجه نحو تلوين كل ما هو أبيض ليتحول إلى اللون الأسود، فلا يشعر هو وزملاؤه بالغربة فى المكان، ولا تتذكر صاحبته كلما رأته أن قطار العمر قد مضى إلى أن وصل بها إلى تلك المحطة.

لم تكن سرعة القطار فى حد ذاتها بالأمر المربك لها، ولكن تقييمها لما مضى عليه ذلك القطار من محطات كان هو ما يشغل فكرها وبالها. لقد كانت سرعة القطار واحدة وثابتة سواء شعر بذلك كل من استقل القطار أو لم يشعر، أما ما حدث مع كل راكبٍ لذلك القطار فى رحلة حياته لم يكن واحدًا أو ثابتًا، لذا كان وميض تلك الشعرة البيضاء أكبر من أن تحاول أن تحجبه، وأولى بالنظر إليه بدلاً من إزالته والتخلص منه وكأنه لم يكن.

(٨٤)

"كرسى العمودية"

استلقى عمدة القرية على ظهره آخذًا ذلك القسط من الراحة الذى اعتاد عليه مع كل ظهيرة، بعد يومٍ طويلٍ من العمل الشاق وسط أهل قريته ورعيته من الفلاحين والمزارعين. ومع محاولته لإراحة جسده من التعب، كان عقله لا يهنأ بأية لحظات من عدم التفكير فى مسئولياته، التى وجد نفسه مجبرًا على تحملها منذ اليوم الأول لارتدائه عباءة العمودية التى توراثتها عائلته جيلاً بعد جيل. وفى هذا اليوم لم يستطع الفِرار من عدم التفكير فيما أخبره به المحافظ من أن غضب الفلاحين قد يودى به إلى النزول من على كرسى العمودية تاركًا إياه طواعية لشخصٍ آخر سيتم انتخابه ليكون هو العمدة الجديد للقرية.

لم يستطع العمدة القديم – الذى أوشك أن يحصل على لقب "عمدة سابق"– تصديق أنه سيكون آخر عمدة من أسرته لهذه القرية التى لم تعرف أية عمدة لها من أسرة أخرى. واستمر عدم تصديقه لهذا التغيير المفاجئ حتى بعد أن بدأت معركة الانتخابات، التى كان هو وكل أفراد أسرته خارج دائرة المنافسة فيها.

وكان يوم إعلان العمدة الجديد للقرية هو الصدمة الكبرى للعمدة "السابق"، الذى وجد نفسه فى يومٍ وليلة، مثله مثل أى فلاح من فلاحيها بلا هيبة أو نفوذ، أو أمر ملزم التنفيذ، أو نهى لا يمكن لأحد معارضته. وصاحَب ذلك التغيير غير المتوقَع من عمدتها "السابق" تغييرًا أكبر بدأ منذ وقتٍ طويل دون أن يلحظه العمدة القديم أو يُلقى له بالاً، ألا وهو تغيير المفاهيم والأفكار فى أذهان الفلاحين وعقولهم، والذى دفعهم لاستبدال الشجاعة مكان الخوف، والإحجام بالإقدام، والرهبة من الانطلاق للفضاء الفسيح بالتحرر من أسر المألوف والمعتاد.

لقد حدث التغيير على غير هوىً ممن كان كبيرًا، عندما أراد كل صغير بمفرده مع مرور الأيام وتوالى الأحداث أن يكبر مفضلاً الاعتماد على نفسه.

(٨٥)

"الدرس الخصوصى"

كانت تستعد مثل زميلاتها للحجز عند المدرسين الخصوصيين قبل بدء العام الدراسى للشهادة الإعدادية، ولم يكن هناك أى شيء غير عادى يستدعى الانتباه ليجعلها تتوقف عنده، أو ليوقف حياتها الطفولية التى طفت عليها بعض ملامح المراهقة المسالمة.

ذهبت لمنزل مدرس اللغة العربية لتحديد مواعيد مجموعة الدرس الخصوصى، وكانت تعلم شرط ذلك الأستاذ لقبول أية طالبة عنده، وهو أن تكون مرتدية للحجاب. وبمنتهى التحدى الأحمق منها أخذت قرارها بألا ترتدى الحجاب لمجرد إرضاء ذلك الأستاذ، طالما أنها لم تتخذ القرار بارتدائه أمام الجميع وعن مبادرة صادقة منها. وبالفعل دخلت عليه وهو فى حصة لمجموعة من المجموعات المنزلية وهى بلا حجاب وبلا خوف لتنظر بنفسها ماذا سيفعل معها. ومع هذا التحدى منها، والذى كان غير معتاد وغير مألوف له ولأتباعه، الذين اعتاد منهم أن يخضعوا لشروطه ولأوامره بكل استكانة وامتثال، كان عليها تحمل نتيجة تحديها بكل بأسٍ ودون فِرار.

وما أن وقفت أمام الأستاذ وبدأت تخاطبه، حتى لمحها بطرف عينه، فاستدار بوجهه على وجه السرعة وبلا أدنى تردد ليتأكد مما لمحته عيناه، فإذا به يراها أمامه بلا حجاب، بل وواقفة بجواره بمنتهى الجرأة تطلب منه مواعيد

الدرس الخصوصى الذى ستأخذه عنده. وفى أثناء ذلك كانت البنات اللاتى حول الأستاذ يشرن إليها بإيماءات حذرة لكى تأتى بأية قماشة لتضعها على رأسها وهى تحاور الأستاذ قبل أن يستشيط غضبًا منها. وبينما كانت هى تتصنع الغباء وتتظاهر بالبلاهة مبدية عدم فهم ما يومئون لها به، أخذت تتبادل الحوار مع الأستاذ، وكأن شيئًا لم يكن، بينما الأستاذ كان قد استدار ليحاورها بشرارٍ نارى يتطاير من عينيه، وهو يحملق فيها غير مصدقٍ لما يراه أمامه.

بدأ الأستاذ بسؤالها عن سبب عدم ارتدائها الحجاب على الرغم من علمها بقدومها إليه. فكانت إجابتها عليه هى أنها بالفعل تعلم ذلك الشرط قبل مجيئها إليه، ولكن بما أنها غير مرتدية للحجاب بصفة دائمة، فقد قدمت إليه على حالتها كما هى (لا كما يريد هو أن يراها).

وبعد رفضه لإجابتها بدهشة يكسوه الاحترام، أخذ يوضح لها أنه من غير اللائق أن تكون فى هذا السن وغير مرتدية للحجاب، ثم سألها عن والدتها وعن كونها مرتدية للحجاب أم لا، فأجابته بأنها مرتدية له. فتعجب لذلك الأمر، ثم أعاد عليها سؤاله مرة أخرى عن سبب عدم ارتدائها الحجاب بينما ترتديه أمها. فكانت إجابتها أن والدتها لم ترغمها قط على إرتدائه، وهى حتى الآن لم تقرر بعد أن تلتزم بارتدائه. فما كان منه فى نهاية حواره معها إلا أن أمرها بضرورة أن تكون مرتدية للحجاب، إذا أرادت الالتحاق بأية مجموعة من مجموعات الدرس الخصوصى عنده، موضحًا لها أنه من الأفضل لفتاة بالغة مثلها أن

تكون مرتدية للحجاب، فهو أمرٌ ضرورى لا يحتاج منها أن تفكر فيه، بل عليها أن تخضع له خضوعًا جبريًا فور بلوغها.

لم تجد هى شيئًا لتقوله له بعد ذلك، فهزت رأسها مبدية استجابتها لما يقول، وأخذت منه موعدًا تبدأ فيه الدرس الخصوصى عنده مع زميلاتها.

وخرجت من منزله، وهى تقول لنفسها:"إنه ينتظر منى أن أستجيب لأوامره وأن أرتدى الحجاب أمامه، ثم أخلعه فور انتهاء الدرس والخروج من عنده مثلما تفعل أكثر البنات اللاتى تأخذن درسًا خصوصيًا عنده، ولكنى لن أفعل ذلك ... فالحجاب أمرٌ دينى، أى أمرٌ بينى وبين الله، فكيف يجبرنى هو عليه وكأنه أمرٌ بينى وبينه هو؟!"

وانطلقت مسرعة لمنزلها لتخبر والدتها بما حدث، فأخبرتها والدتها بأنها كانت تعلم أن ذلك سيحدث معها، وأن ذلك المدرس لن تفلح معه شجاعتها المتأججة، ورغبتها الملحة فى الاستقلال وعدم الخضوع لأمر ليست على اقتناع به. والآن بعدما فعلت ما تريده، وذهبت إليه وهى حاسرة الرأس، فليس عليها الآن سوى الامتثال لأوامره حتى تتمكن من أخذ الدرس عنده، وتكون مثلها مثل بقية زميلاتها اللاتى تسعين للحصول على الدرجة النهائية فى مادة اللغة العربية لا غير.

نصحتها أمها حرصًا منها على ألا تدخل ابنتها فى تحدٍ ربما لن تستطيع الصمود فيه لوقتٍ طويل؛ ولكنها أصرت على عدم ارتداء الحجاب إرضاءً لمخلوق حتى لو كان ذلك على حساب تفوقها الذى اعتادت عليه، واعتادت أن تسعِد به والديها فى نهاية كل عام دراسي.

وإذا بالقدَر يخبىء لها القيام بالحج والعمرة بعد هذه الحادثة بعدة أسابيع، فوجدت نفسها ترتدى الحجاب بالفعل لأول مرة امتثالاً لأمر الله أثناء تأدية فريضة الحج، وليس كما اعتادت أن ترتديه وهى فى السعودية منذ أن كانت طفلة صغيرة فى المدرسة، ثم عندما كانت تذهب لزيارة والدها فى كل عام خلال إجازة نهاية العام الدراسى. فذاقت وقتها وللمرة الأولى وبدون مقدمات مذاق ارتداء الحجاب إرضاءً لله، وطاعة له، وليس استرضاءً لمخلوق، أو امتثالاً لقيود تفرضها قوانين دولة من الدول. فما أن ارتدت الحجاب هذه المرة إلا وقد قُذِف فى قلبها ألا تخلعه حفاظًا على الحجة التى أدتها، ورغبة فى عدم حرمانها من قبول الله لها.

وعندما عادت لبلدها، ذهبت لأستاذها وهى مرتدية للحجاب لتبدأ فى حصص الدرس الخصوصى عنده، فرآها أمامه هذه المرة على الهيئة التى يريد أن يراها فيها، فقال لها متهكمًا: "أما وقد ارتديتِ الحجاب فعليكِ ألا تخلعيه مثلما تفعل زميلاتك فور خروجهن من هنا." فنظرت إليه متعجبة من إصراره على قهر زميلاتها بإجبارهن على ارتداء الحجاب، وهو يعلم يقينًا أنهن يخلعنه بعد انتهاء الدرس، ومع ذلك فهو يفضل منهن أن يستجبن لأوامره بغض النظر عن اقتناعهن بما يفعلنه ليكون طاعة لله. وأسرَّت فى نفسها اعتراضها على سلبية زميلاتها،عندما آثرن الامتثال لأوامر البشر أيًا من كانوا حتى لو كانت فيما يتعلق بما يرضى الله أو يغضبه.

(٨٦)

"الخَلق والميلاد"

ولدته أمه من أبٍ غنيٍ، فأصبح هو الطفل المدلل الذى تمتع منذ ميلاده بتلبية كل طلباته، أما ابن بواب البناية الضخمة، فكان ثامن وليد لوالده، بعد سبعة أبناء قبله كان ترتيبه الأخير بينهم، ليجيئ الدنيا ليشاركهم فى قوت أبيهم المحدود ودخله البسيط الذى يفيهم احتياجاتهم الأساسية بالكاد. وثالثٌ أطل على الدنيا فلم يجد له أبًا على قيد الحياة، فحُرِم طوال حياته من حنان الأب وعطفه والشعور بالاحتماء به من ويلات الدهر ومصاعب العيش. ورابعٌ عرف وهو صغير فى السن أنه يعيش وسط أطفال فى مثل عمره، ولكن بلا أب أو أم، فكان سؤالهم جميعًا عندما يجلسون سويًا: "لماذا وُلدنا بلا أبٍ يرعانا، وأمٍ تحنو علينا وتربينا، مثل بقية الأطفال؟"

ولم يكن ذلك التساؤل محض اهتمام أولئك الأطفال فقط، بل كان موضع اهتمام كل المجتمع حولهم، إذ كان أول سؤالين يُطلَب منهم أن يجيبوا عليهما جبرًا وقسرًا هما:" من هو أبوكم؟ ومن تكون أمكم؟" وفى معظم الأحوال كانت الإجابة على هذين السؤالين مُلقنَّة لهم منذ بداية وعيهم. وما أن يكتشف السائل أن الإنسان الواقف أمامه ليس له أب معلوم، أو أم ذات شأن، أو عائلة لها اسم مشهور، أو تاريخ تتناقله الأجيال، حتى تتبدل نظرته إليه، وتتغير لهجته فى الحوار معه، وما هى إلا ثوانٍ قليلة حتى يفر من أمامه وكأنه كان واقفًا أمام حاملٍ لمرضٍ معدٍ لابد من الإسراع بالابتعاد عنه، وتحاشى الاختلاط به.

وها هى دنيا البشر مليئة بالناس الذين هم جميعًا ليسوا سوى أبناء لناس قبلهم، من الأغنياء ومن الفقراء... من العلماء ومن الجهلاء ... من ذوى السلطات ومِمَن يملكهم السلطان ... من المشهورين ومن المجهولين .. من الشرفاء ومن الخبثاء ..ممن ظلوا يتناسلون منذ قديم الزمان، وممن انقطع نسلهم بلا استئذان ... ممن يعرفون أصلهم وفصلهم ونسبهم، وممن يجهلون حتى الاسم الحقيقي لوالدهم ووالدتهم، ممن كان لأجداد أجدادهم أعرق تاريخ لم يتبق منه سوى القليل من الصور الذهنية التى تستحضرها ذاكرتهم من حينٍ لآخر إثلاجًا لصدورهم بعد تغير حالهم وتبدل أوضاعهم، وممن لا يعرفون لهم شجرة أنساب نبيلة وقديمة فكانوا هم من بدأوا بعملهم وجهدهم بذر أولى بذور شجرة نسبهم الجديدة التى سيتفاخر بها أبناؤهم وأحفادهم فيما بعد على مر أجيالٍ وأجيال.

وكل هؤلاء باختلاف أنسابهم التى يتفاخرون بعراقتها فى كل وقتٍ وحين، أو يتجاهلون الحديث عنها تنكرًا لها أو استحياءً منها، قد انشغلوا بالأسماء وتناسوا المُسمَيات، واهتموا بالألقاب أكثر من اكتراثهم بصانعها وصاحبها، ووضعوا الميلاد نصب أعينهم فأطلقوا على نتاج كل علاقة غير زوجية بطريقة شرعية "غلطة" أو "طفل الخطيئة"، ليعيش طوال حياته يدفع ثمن خطيئة والديه اللذين رفضا وجوده وهو جنين، وتخليا عنه وهو رضيع، وتنكرا له منذ طفولته معتبرين إياه ليس سوى صورة قبيحة لذكرى مشينة لمتعة استمتعا بها للحظات، ما أن انقضت ومضت حتى كان لزامًا على ثمرتها أن تموت هى الأخرى فى الحال. ولكنَّ الخالق قدَّر أن يكون الناس فى الدنيا أبناء من نسل آدم

وزوجه حتى يعلم الجميع الأصل الواحد لنسبه إن تنكر له والداه اللذان أنجباه، فيجيب على كل سائلٍ بثقةٍ جمة أنه ابن "آدم وحواء"، وحتى يتساوى أبناء الأغنياء مع أبناء الفقراء، وأبناء الأقوياء مع أبناء الضعفاء، فلا يكون لأحدهم فضل على الآخر بنسبه القريب وحسبه الطويل السلسلة، بل يكون موضع اهتمام كل إنسان هو معجزة خلق الإنسان نفسها، فيحيا حياته مدركًا قيمة نفسه كمخلوق خلقه الله عزَّ وجلَّ، ولا يصب جل اهتمامه بمولده وفقط، إذ أن الخلق هو الأصل في الوجود، أما الميلاد أيًا كانت مواصفاته فليس سوى وسيلة لظهور ذلك المخلوق في الوجود. وإذا انتبه الإنسان إلى أصل وجوده، فسيبحث عن غايته من حياته وسينشغل بها حتى مماته.

(٨٧)

"الغزالة والأشبال"

فى كل مرة كان يلتهم فيها الأسد الضخم الغزالة الصغيرة، كانت الدموع تغمر عينيها حزنًا على الغزالة الضعيفة التى ليس لها ذنب فى أن يفترسها الأسد على غِرة بهذه الشراسة المعدومة الرحمة. فى كل مرة كانت لا تفكر سوى فى الحيوان المأكول، ولم تفكر أبدًا فى الحيوان الآكل. فى كل مرة كانت تمقت فكرة الافتراس ومن قام بها، ولم تكن تركز سوى على واقعة التربص اللازم قبل الانقضاض السابق لعملية الافتراس البشعة، والتى تكون ضحيتها دائمًا محل عطفها وشفقتها.

وذات مرة لفت انتباهها أن الحيوان المفترس الذى انقض على الغزالة الصغيرة كان أمًا، وأنها عندما عادت بفريستها إلى أشبالها الصغار وجدتهم جميعًا قد هلكوا من الجوع، فلم يتناول الطعام الذى أحضرته لهم أحدٌ منهم. ولم يكن منها جراء ذلك سوى الجلوس بجانبهم بلا طعام حزنًا عليهم، وندمًا على عدم تمكنها من إنقاذ حياتهم رغم نجاحها أخيرًا فى الحصول على فريسة شهية ليتناولوها جميعًا.

وبعد هذا المشهد الأمومى الحنون، لم يعد الافتراس يعنى لها الوحشية والدموية وفقط، بل أصبح يمثل لها مفهومًا جديدًا خلاصته أنه هو الوسيلة المعروفة لتلك الحيوانات المفترِسة كى يتمكنوا من البقاء على قيد الحياة، وأن

تخليهم عنه يساوى فى المقابل اختفاءهم من الوجود وانتهاء حياتهم. ولولا وجود آكل لكل مأكول، ومأكول يتناوله كل آكل، لما استمر وجود الآكلين، ولما اجتهد كل مأكول فى الحفاظ على حياته.

إنها الطبيعة الفطرية على هذا الكوكب، والتى تحمل فى إحدى يديها أحد النقيضين، وفى اليد الأخرى النقيض الآخر، والذى ما أن يشعر كل موجود على سطحه بأنه حي، حتى يجد الموت منتظرًا له وكأنه يرقبه من بعيد مقتربًا منه مع مضى كل لحظة فى حياته، إلى أن يقابله وجهًا لوجه، فيصافحه رغمًا عنه لتنتهى بذلك رحلة حياته على هذا الكوكب الأرضي.

وطالما أن الموت حتمًا سيقابل الجميع مصافحًا لهم، فما الفارق إذن بين كون الميت قد مات مأكولاً، أو مات من شدة الجوع، ولماذا إذن تكون الشفقة والرحمة على المأكول، ويكون الحنق والسخط على الآكل؟!

(٨٨)

"وابل النعم"

استهلت يومها كعادتها بشرب فنجان قهوة سوداء على الريق، لأنها وكعادتها أيضًا استيقظت من نومها لتشعر وكأنها بُعِثت للحياة بعد موتٍ طويل لتُسحَب على وجهها إلى جهنم وبئس المصير. ومع بداية كل يومٍ جديد تشرق فيه الشمس لتملأ الدنيا أملاً وسرورًا وبهجة، تكون هى الكائن الوحيد المحروم من ذلك الضياء، وذلك الأمل، وتلك البهجة، وهذا السرور. وكما قبعت الكآبة على روحها فأثقلت جسدها عن الحركة، لوَّن التشاؤم كل نقطة بيضاء فى قلبها باللون الأسود الذى بات هو لون حياتها الذى تفتح عينيها عليه مع منتصف كل صباح.

ومثلما يحاول الأسوياء دائمًا أن يحتفظوا بأحزانهم فى صدورهم، لا أن يثقلوا بها كاهل كل من حولهم، يتفنن كذلك هؤلاء الحفنة من الأشقياء بكل ما أوتوا من عزمٍ وإصرار على إتعاس كل من حولهم غير مدخرين لأدنى جهد عندهم فى بث روح التشاؤم والكآبة والحزن والضيق والضجر فى كل وقتٍ، وبلا أى سبب. وعادةً إذا ما حاولْتَ أن تسأل أحد هؤلاء التعساء عن سر بؤسهم وشقائهم الملحوظ، تجد شكواهم منصبة على نعمةٍ دنيوية بعينها قد حُرموا منها بينما يتمتع بها كل من يرونه حولهم. لقد ضاقت بهم صدورهم رغم اتساع الدنيا من حولهم بسبب نعمةٍ واحدة فقدوها، فقرروا أن يعيشوا بقية أعمارهم فى غمٍ وشقاء، طالبين إياها بإلحاحٍ شديد وإصرارٍ عنيد، وموقنين أن

سعادتهم متوقفة حصريًا على تلك النعمة التى فقدوها بعد نيل، أو حُرموا منها للأبد. لقد أصم هؤلاء آذانهم عن سماع الكلم الطيب، مثلما منعوا ألسنتهم من قبل عن التفوه بكلمة شكر واحدة تُثلِج صدورهم، فتجبرها على الاتساع إذا ما خطر ببالها أن تضيق. ومثلما كان ضيق نظرتهم تلك نابعًا من ضيق صدورهم التى أوصدوا أبوابها بعنف على قلوبهم ملقين مفاتيحها فى غياهب عقولهم المظلمة، أغمضت هى أيضًا عينيها عامدةً متعمدة عن كل النعم التى تغمرها، ولا تستطيع أن تعدها أو أن تحصيها، وتركت نفسها فريسة سهلة للحزن والشقاء.

لقد انزلقت معهم فى متاهة الكِبر والعناد، وتناست حتى نسيت أنها دائمًا وأبدًا فى مقام الممنوح لا مقام المانح، وفى منزلة الآخذ لا منزلة المعطي، لذا عليها أن تتأدب فى الطلب، وأن تصبر على المنع، وأن تشكر مُسبب الأسباب فى كل وقت وعلى كل حال. فهذا شأن كل من لا حول ولا قوة له مع من له كل الحول وكل القوة. وذلك هو خُلق كل من يريد الاستزادة من النعم التى لا يُنعِم بها سوى واهب النعم جميعًا، والذى إرادته لأى شيء ليست سوى كلمة هو قائلها أمرًا لكل شيء، وطاعة من كل شيء، استسلامًا وعبودية من كل المخلوقات، وخضوعًا لألوهية الإله الواحد الحنَّان المنَّان ذى الجلال والإكرام.

وذات ليلة قررت أخيرًا أن تستيقظ مبكرًا فى الصباح، فإذا بها فور استيقاظها من نومها وفواقها من غفلتها تشاهد الشمس المشرقة وكأنها تراها للمرة الأولى فى حياتها، فراقبتها وهى ترسل أشعتها الوضاءة حاملة كل النعم والخيرات لمن سيبدأ رحلة الصعود رجاءً فى اللقاء، واستبشارًا بالرضا والاسترضاء.

(٨٩)

"القائد الصريع"

"أنا أعرف المكان جيدًا ... فتعالين ورائى جميعًا" ...

كانت تلك هى كلماتها لكل السيدات اللاتى تأهبن للذهاب إلى المقابر لحضور دفن إنسانة جميلة عاشت بينهن برقةٍ وعذوبة، فلم تبادر بالإساءة لأحد، ولم تبدأ بمعاداة أحد، ولم تتأخر عن الوقوف بجانب أحد أو مساعدته قدر استطاعتها. ومثلما قدمت المتوفاة الكلمة الطيبة والمشاعر النبيلة لكل من حولها طوال حياتها، اجتمع كل من عرفها فى يوم جنازتها مودعين لها ومتألمين لفراقها.

وتقدمت تلك السيدة المتبرعة بالقيادة جموع النساء؛ لكونها الدليل لهن على المكان الصحيح للمقبرة التى ستتم بها عملية الدفن. وبخطواتٍ واثقة ونفسٍ متأهبة ذهبت تلك السيدة لتتقدم الجميع إلى مكان الدفن، وكأنها قائد مغوار فى مقدمة معركة شديدة البأس لا يفتقد فيها أى قدْر من الشجاعة والإقدام، ولا يعوق إرادته الوثابة خلالها أى حِمْل يدفع إلى التخاذلِ أو الإحجام. وما أن وصلت إلى الهدف الذى قادت الجموع إليه، فإذا بها تكون أول من انهار من فرط البكاء، فكانت هى الوحيدة التى فاجأت الجميع بسقوطها على الأرض من شدة الصراخ، الذى علا مخترقًا كل الآفاق الساكنة، ومدويًا فى السماء بعدما ملأ المكان بلا استئذان أو سابق إنذار.

وانقلب الحال فى الحال، فبعدما كان القائد هو محل السكينة لمن حوله، لم يجد الجميع بُدًا من الالتفاف حول ذلك القائد الذى سقط فجأةً على الأرض، بعد مسيرة ليست بالقصيرة من القيادة بشجاعة. وبدلاً من أن ينعى الجميع السيدة التى جاءوا لحضور دفنها، إذا بهم ينعون سيدة أخرى هى والدة السيدة التى قادتهم، والتى ماتت منذ أكثر من عشر سنوات، وكانت رؤية ابنتها لقبرها هى المحرك لشجونها وأحزانها الماضية. ونسى بذلك كل الواقفين السيدة التى جاءوا لحضور جنازتها، خوفًا منهم على القائدة الشجاعة التى سقطت بينهم صريعة لحزنها على والدتها، عندما تذكرت مصيبتها القديمة فى وفاتها.

وما أن تم فتح الجبانة، حتى التف الجميع حولها مرة أخرى مانعين إياها من اندفاعها للدخول الذى كانت تهدف منه الارتماء من جديد بين أحضان أمها التى فارقتها تاركةً إياها وحيدة وشريدة رغم مضى كل تلك السنوات.

(٩٠)

"سِر الإيمان"

عزم على العودة إلى مسقط رأسه، والارتماء فى أحضان أرواح من غادروا الدنيا من أقاربه وأحبائه، والاحتماء بما بقى له من ذكريات الماضى، إنهاءً لرحلة طاف فيها الأرض شرقًا وغربًا حتى شاب رأسه ونحل جسده. أخبر الجميع أن مرضه العُضال هو السبب وراء اعتزاله الناس وابتعاده عن الحياة العامة ما بقى له من أيام معدودة فى عمره، أو سنوات عديدة ربما تطول وتمتد، لتبلغ الشيخوخة به مبلغها الذى لا مهرب منه إلا الموت.

والحقيقة أنه لم يعد قادرًا على أى مزيدٍ من كل ما مضى من أشياء وأحوال ... لم يعد قادرًا على مزيدٍ من الاندماج، أو مزيدٍ من استكمالٍ لمسيرةٍ عَلمَ مؤخرًا، بعد أن اختارها واختار معظم تفاصيلها، أنها كانت السبب فى إدراكه أنه لم يكن على صواب فيما مضى من عمره، وأن ما انكفأ على تعلمه وتعليمه غيره طوال حياته لم يكن غير كذبٍ وتضليل، وكأنه كان من وقتٍ لآخر على بصيرة من الحقيقة، ولكنه ظل يتوارى من الاعتراف بها وإعلانها على الملأ فى كل مرة كانت تتجلى واضحة أمامه ليفصح عنها.

وبعد كثير من التهرب الذى بات لا مهرب من مواجهته، لم يستطع سوى الاعتراف بالحقيقة أمام نفسه، فواجهها ناطقًا بها بصوتٍ عالٍ، لم يسمعه سواه، ولم يبتهج لسماعه سوى فؤاده الذى ظل فارغًا أمدًا طويلاً، فإذا به قد

فاض فجأة ممتلأ بسر الإيمان الدفين، بعدما أطلق سراح شعلته التى مكثت أسيرة فى بواطن ذاته.

ويومها فقط تمنى لو كان يملك نفس شجاعة صديقه الذى نفض عن نفسه أغلال التقاليد منذ زمنٍ بعيد، وحرَّر ما تبقى من حياته القصيرة من أصفاد ظنون المحيطين، ففك عن قدميه كل قيدٍ، وتمكن من الوقوف أمام كل ملأ معلنًا للجميع عظمة السر الدفين ... ولكنه هو لم يستطع سوى مواجهة نفسه بالحقيقة دون التمكن من إعلائها على الملأ من أجل تصحيح المفاهيم وتنوير العقول وإنقاذ الملايين.

(٩١)

"حنان بلا قسوة"

لم تخفِ عنه منذ بداية زواجهما أنها تلك الفتاة البسيطة التى تجذبها الكلمات العذبة الصادقة، واللمسات الرقيقة الحانية. بينما أخفى هو عنها قسوته وشدته عند غضبه، وتحوله فى لحظة مباغتة إلى ماردٍ شرير يصطدم بكل من أمامه أيًا من كان حال هياجه وثورته. لم تكن تتخيل قط أن سعادتها معه لن تدوم سوى أيام قليلة، بعدها ستتحول حياتهما إلى نوباتٍ صرعاء تشتعل فجاة كالبركان، ناثرة حممها المستعرة فى كل مكان، ثم تهدأ وقتما قُدِّر لها الهدوء والاستكانة.

بعد صدمتها الأولى فيه، آثرت الصمت والتحمل أملاً فى أن يتغير حاله المريض، ولكنه كان يستسلم فى كل مرة لغضبه المفاجئ غير محاولٍ لكبته أو مجاهدًا نفسه لكظمه. وظلت هى صامتة أمام اندلاع ثوراته، خاصة بعد علمها أن مولودها الأول على وشك الوصول. وفضلت ألا يكون ذلك العيب المشين فى زوجها سببًا فى حرمان طفلها البريء من أبيه، أو فى أن يقضى بقية عمره مشتتًا بين أبٍ لا يراه كثيرًا، وأمٍ لن تنجح فى أن تملأ الفراغ الذى سيتركه أبوه فى حياته.

واستمرت الحياة بينهما، ونتج عنها من الأبناء ولدٌ وثلاث بنات، أصبح أكبرهم هو عائل الأسرة بعد وفاة والده إثر أزمة قلبية أصابته جراء نوبة من

نوبات الغضب التى اعتاد أن يطلِق لها العنان بلا قيدٍ أو حد. ومثلما كان الأب شعلة متحركة من الغضب مع زوجته وأبنائه، استلم الابن شعلة الهياج المفاجئ من والده، وحلَّ محله فى قذف حِمَمه غير المحدودة من وقتٍ لآخر، ولم يكن على أخواته وأمه إلا تحمله مثلما تحملوا والده قبله.

واستكمل الجميع حياتهم فى أسرة أفقدها العنف المستمر والهياج المبالغ فيه معنى الاحترام المتبادل والذى حلَّ محله الخوف، والجُبن، والقهر، والظلم، وبقيت القسوة بديلاً غير شرعى للحنان الذى تمنته الزوجة بعد زواجها، وظلت تبحث عنه الأم وبناتها.

(٩٢)

"النصر للخير"

جنح لكتابة نهاية سعيدة لقصته القصيرة مثلما يفعل كل القصاصين عندما يشرعون فى كتابة قصة مأساوية طويلة مليئة بالأحزان المريرة والعبرات الكثيرة. وما أن أمسك بقلمه ليفتعل تلك النهاية المتوقع منه أن يكتبها، والمرجوة فى ذهن كل قارئ يأمل أن يقرأها، حتى تساءل عن سبب سعى الإنسان فى كل زمانٍ ومهما اختلف مكانه وتبدلت مكانته إلى بلوغ تلك النهاية السعيدة، حيث الهناء وراحة البال، وانقطاع تيار الآلام بعد تدفقٍ أرهق الكاهل وأضعف الأبدان.

وقال لنفسه : "لابد وأن حتمية النهايات السعيدة، وانتصار الخير النهائى على الشر نابع من مخزون معرفى ثابت فى أذهان الناس جميعًا، وهو الذى منحهم ذلك اليقين القوي بحتمية انتصار الخير فى النهاية وهزيمته للشر مهما طال أمده واختلف شكله، ولكن من أين جاءوا جميعًا بتلك القناعة؟! هل هى فطرة فُطِروا عليها تبزغ صورتها أمامهم، ويعلو صوتها الحبيس داخلهم كلما احتاجوا إليها واشتد أملهم فيها؟ أم هى وهمٌ يزداد تعلقهم به كلما تأكدوا من عدم تحققه على أرض الواقع، فلا يجدون أمامهم سوى تلك الفبركة الخيالية والثابتة لقصصهم التى أضحت هى الأخرى وهمية وغير موضوعية عندما بذلوا

قصارى جهدهم فى صباغتها بصبغةٍ ثابتة يرضونها، وترضِى قراءهم لأنها تُسَكن من آلامهم، وتخفف من أوجاعهم؟!"

لقد قرر الكاتب أن ينهى قصته القصيرة بنفس النهاية التى ينهى بها كل راوٍ قصته، فانتصر الخير على الشر بعدما تعمَّد هو أن ينتصر له، وانهزم الشر فى النهاية هزيمة لا تمكنه من العودة.

ولقد كان وهو يتعمد تكرار تلك النهاية المألوفة على قناعة أكيدة بأن انتصار الخير ليس تقليدًا أعمى، بل هو أمرٌ حتمى، وحقيقة واقعية لابد لها من الوقوع، ولا يمكن أن يعتريها شك أو يخفيها توهم، وأن بزوغ الحق وانتصاره فى النهاية، هو تلك الفطرة التى تتحدى كل ما يصفدها من أغلال لتتجلى وتتحقق مطارِدة بضراوة كل ما يواجهها من أحداث وتحديات، أو ما قد يحاوله أى قاص من أن يحرِّف فى خياله مستعينًا بقلمه تلك النهاية الحتمية والمألوفة، متحايلاً على النمط المعتاد الذى يركن إليه الناس غير راجين سواه، طالما كانوا هم من أولئك المتعاطفين مع الخير، والمتمسكين بالحق، والمنتمين لأهله، حتى لو كان أملهم الوحيد فى تحققه مرتبطًا بخوارق المعجزات.

(٩٣)

"طمع الأغنياء"

لم تكن كأية تركة يتم توزيعها بالشرع بين مستحقيها من الورثة، بل كانت أشبه بفريسة تتنازعها حيوانات الغابة المفترسة ليقتطع كل منهم ما يستطيع أن ينتزعه بمخالبه من نصيب بقية الحيوانات. وبالرغم من أن قسمة الميراث الشرعية محددة ودقيقة ومُلزِمة، إلا أن بعض الورثة كانوا غير راضين عن نصيبهم المقدر لهم طامعين فى انتزاع ما يقدرون عليه من نصيب الباقين. ومن هنا بدأ الصراع الذى كان أوله الجدل والمهاترات، ثم وصل إلى الصدامات والمشاحنات، حتى أفضى إلى دخول ساحات المحاكم بعد إدعاءات بتزوير بعض الأوراق للاستيلاء على المزيد من الأموال والعقارات.

وبعدما نال كلٌ القدر الذى أشبع طمعه وأرضى نهمه من الفريسة التى مُزقت كل مُمزَق، لم يعد هناك ما يجمع بين حيوانات الغابة المفترسة سوى السعى لاكتشاف فريسة جديدة يتنازعون اقتسامها ويتناحرون لالتهامها حتى النهاية. ومع كل انتزاعٍ لأجزاء الميراث بالحيلة تارة وبالمحاورة تارة أخرى، كان هناك تمزيق حاد لأوصال الأخوة ولأوداج الرحم الذى داسوه بحوافر أقدامهم، عندما كان يحاول كل منهم أن يستأصل لنفسه أكبر قدرٍ ممكن من الفريسة المتوارثة ذات الأموال المتراكِمة.

وازداد كل وارثٍ طامعٍ مزيدًا من المال فوق ماله، ومع ذلك لم يكتفِ أحدٌ منهم بما ناله من مغنم، وظل مستمرًا فى إدعاء تكبده كل مغرم.

(٩٤)

"ذكرى التكريم"

بعد كل تفوق وتميز كان ينتظر التكريم والتقدير، منذ أن كان طالبًا متفوقًا فى المرحلة الابتدائية واستطاع أن يكون من بين العشرة الأوائل على المحافظة التى ينتمى إليها، وحتى تخرجه فى الجامعة وتحقيقه المركز الثانى من بين العشرة الأوائل على دفعته. وطال انتظاره للتكريم حتى فقد الأمل فيه وعزم ألا يفكر فى تقديرٍ لن يحدث.

وبينما كان مُصرًا على ألا يجتر آلامه وحسراته التى يكتم أنينها فى صدره وألا يبوح بها لأحد، كان بين حينٍ وآخر لا يقوى على مقاومة تأوهاته عندما يرى فرحة غيره من المتفوقين عند تكريمهم بأى شكلٍ من الأشكال، فلا يملك سوى الانغماس فى دراسةٍ جديدة لعل تفوقه فيها يكون أوفر حظًا من سابقيها.

ومن دراسةٍ تلو أخرى، وتفوقٍ بعد آخر، وبعد طرق أبواب العمل المتاحة أمامه للاستفادة من حصيلة كل ما درسه، وجد نفسه فى نهاية المطاف يؤدى عملاً عاديًا يقوم به أيضًا آخرون كُثر ممن لم يجتهدوا فى تحصيل أى علم، ولم يكن لأى منهم أى نصيب من التفوق والتميز الدراسى.

ولم يتسم عمله فقط بعدم التميز، بل كان راتبه كل شهر أيضًا لا يُمَكنه من الإيفاء بمتطلبات حياته الأساسية، ومن ثمَّ لا يسمح له باستكمال رحلة

البحث والدراسة وتحصيل العلم الذى عكف عليه بجدٍ واجتهاد منذ أن كان صغيرًا.

وفى بيته المتواضع، وبعد انقضاء سنوات شبابه، لم يجد سوى شهادات ورقية تثبت ما حصل عليه من درجات علمية طوال رحلة حياته، بينما ظل مفتقدًا لصورةٍ تذكارية واحدة تعبرعن فرحته ولو بتكريمٍ واحدٍ له، وتكون هى التذكار الباقى له ليذكره بما كان يستحقه من تقديرٍ نظير تفوقه المستمرعلى أقرانه.

(٩٥)

"إنصاف"

عاشوا جميعًا متبعين تقاليد متوارثة فى تربيتهم لأبنائهم، وإذا حاول أحدهم أن يتساءل: "لماذا؟"، لم يكن ليجد أية إجابة غير تلك الهمهمات بضرورة الاتباع للمألوف، وللتقليد المتوارَث الذى لا مفر منه ولا مهرب. وكانت "سليمة" من هؤلاء اللاتى نشأن على تطبيق التقاليد بحذافيرها دون إعادة تفكير فيها بهدف الفهم والاقتناع، أو رغبة فى التأمل من أجل التغيير، ومن ثمَّ فقد ربَّت ابنتها مثلما تفعل كل الأمهات فى مجتمعها، فأنشأتها على التزام العفة والحياء، والبعد عن التبرج والاختلاط، بينما سمحت لابنها أن يعبث مع أية فتاة تسمح له بذلك، بحجة أنه "الرجل" الذى لن يكون هناك أى لوم عليه طالما ستكون "المرأة" كعادة ذلك المجتمع هى كبش الفداء الذى سيتحمل جُل مسئولية تلك العلاقة غير المشروعة لها فى أية مرحلة من مراحلها، والمسموحة له حتى النهاية.

ومع كل خطأ كان يرتكبه ذلك الابن المُدلل وغير المسئول، لم يكن هناك سوى محاولة والديه لإصلاحه نيابة عنه فور تفجره – فى هدوءٍ تام وبلا شوشرة. وكانت بداية أى خطأ من هذه الأخطاء، المتماثلة فى وصفها وشكلها وأحداثها ومآلها، تتم بموافقة جميع الأهل ضمنيًا، بل كان تطورها السرى وغير المعلن بشكلٍ أو بآخر محل مباركتهم جميعًا، وكأن قدرة ابنهم على مصاحبة

الفتيات واتخاذهن أخدان، هى الأمر الوحيد الذى يثبت رجولة ابنهم فى المجتمع.

ولم يكن ذلك الابن هو وحده الذى استباح حرمات بنات الناس مستحلاً لها، بل كان مجتمعه كله هو أكبر مشجع ومحرض له، ومن ثم فهو شريكه الذى يتحمل معه مسئولية كل جريمة أخلاقية وقع فيها. فذلك المجتمع هو الذى سمح له بطيب خاطرٍ أن يفعل ما لم يُسمَح بتاتًا لأخته أن تفعله، لا لشيء سوى لأنه هو "الرجل" الذى إذا أخطأ فله كل الغفران دون المساس بسمعته، بينما أخته هى "المرأة" التى ليست سوى كائنٍ ضعيف سهل الكسر، وسهل الانقضاض عليه، وتلويث سمعته وسيرته للأبد.

وكان من نتائج تلك التربية غير المنصفة أن خلَّفت مع الوقت بناتٍ كثيرات ساخطات على وضعهن المتدنى كسلعة معروضة فى الأسواق، ومحفوظة بحرص لمن يلعب ويلهو كيفما يشاء، ثم إذا أراد الزواج فلا يتقدم سوى لخطبة المرأة العفيفة التى أهداها له مجتمعه الفاسد وغير السوى، لتكون سكن من لا يستحق السكينة، وشرف من ليس له شرف. وإذا أبين قبول ذلك العرض غير المنصف، وفضلن عدم الزواج، فلن يكون أمامهن سوى أن يتحولن بمرور الوقت إلى فتيات معقدات ثم نساء عانسات فى مقابل ألا يكن زوجات مقهورات وفاشلات فى زواجهن.

كما أنتج ذلك المجتمع أيضًا فتيات أخريات تمردن على وضعهن وقررن أن يدخلن ميدان اللهو والتسلية مع الرجال، مساواة بهم وتحديًا لمجتمعهم، أو انجرافًا لعاطفة خادعة ومشاعر بلا أخلاق أو فضيلة، فدفعن الثمن بعد

ذلك وحدهن من شرفهن وسمعتهن، التى أصر المجتمع على استباحتها متحدًا مع الرجال ضدهن، فمنح الرجل البراءة رغم خسة جريمته، وألقى كل اللوم والعقاب على المرأة وحدها على الرغم من أن تلك الجريمة الفاحشة لابد لها من الثنائية فى الفعل.

وفى مقابل كل هؤلاء النساء تقف القليلات اللاتى يساندهن رجال أسوياء مطالبين بالمساواة فى تربية الفتيان والفتيات، ومنادين بالعفة للجميع، وبالعقوبة المجتمعية الواحدة لكل من يخطىء رجلاً كان أو امراة طالما استباح لنفسه ما لا يقبله من غيره، وكانت ابنة السيدة "سليمة" واحدة من هؤلاء المناضلات اللاتى استعففن رغم كل هذه الضغوطات فرُزِقن بالأعِفاء.

(٩٦)

"السعادة عمل"

ذاقت طعم النجاح، وأحست بنشوة التميز، وعامًا بعد عامٍ أتمت كل العمل فلم يعد هناك أى إنجاز، وصاحب ذلك اختفاء مذاق السعادة الذى كان يمنحه لها كل نجاح تحققه، وبرغم تزاحم الناس حولها، تملك منها إحساسها بالوحدة وشعورها بالاكتئاب. وبعد مضى الأعوام والسنوات، اكتشفت أنها أفنت شبابها فى حُلمٍ واحدٍ لا غير، لم ينافسه ما سواه، ولم يشغلها عنه ما يشغل كل الفتيات فى مثل عمرها آنذاك. فلم تكترث بملاهى الحياة وتلاهيها التى تستنزف بريق الوجوه، ولا تستبقى من طهارة النفوس ما يساعدها على الاستمرار بثبات وسواء. وبعد انقضاء الأحلام وتمام تحقيقها، لم يعد هناك إلا انتظار المجهول البعيد، وتوقع المأمول السعيد.

وبعدما أمضت شهورًا طويلة بين انتظارٍ وتوقع، وبين استحضار ما غاب واستدعاء ما فات، اكتشفت أن سعادتها الماضية كانت ثمرة تجنيها هى لنفسها لتستأثر بها دون غيرها، ولم تفكر أبدًا فى أنها من الممكن أن تزرع ثمار سعادة كثيرة لغيرها يقومون هم بقطفها، فتتذوق بذلك مذاقًا جديدًا للسعادة غير ذلك المذاق الأنانى، الذى مكثت طويلاً تنهل منه دون ارتواء.

لم تكن تعلم أن لديها الكثير لتمنحه للآخرين، ولكنها أدركت أخيرًا أن السعادة الحقيقية لا تتم إلا بالبذل والعطاء، وتفنى سريعًا بالشح والإدخار

خوفًا من الإفناء وحرصًا على الإبقاء. لقد أيقنت أنها لم تستطع أن تحتفظ بما عاشته من أيامٍ سعيدة وأوقاتٍ جميلة، لتظل تنعم بها دون انقطاع، فلماذا إذن تمنع نفسها من الإنفاق وكل شيء إلى زوال؟!

لقد أنفقت سنوات عمرها الماضية دون حرصٍ أو إمساك فى أشياء أسعدتها لبرهة قصيرة، ثم أصبحت بعد ذلك مجرد ذكريات، فلماذا إذن لا تقوم الآن بكامل إرادتها ورغبتها بإنفاق ما تبقى من حياتها فى أشياء أخرى تسعد بها غيرها لبرهةٍ أطول من الزمان؟ ولماذا لا تزرع لهم الثمرة التى سيسعدوا بجنيها وحصادها فى وقتٍ ما؟

لماذا تدخر ابتسامتها لنفسها، ولا تبذلها لإدخال السرور على الآخرين؟

ولماذا تقف وحيدة على الشاطئ البعيد، وهناك الكثيرون حولها ينتظرون قدومها منذ زمنٍ بعيد؟

لماذا تستأثر قوتها لنفسها، وهناك غيرها من الضعفاء، الذين أسَّروا ضعفهم حرجًا من افتضاح أمرهم والاستهتار بهم؟

إنهم ما زالوا ينادون عليها بابتسامتهم الوديعة سائلين إياها فى صمتٍ أن تقبل عليهم بغير خوف وارتياب، وبلا تمهلٍ أو ترددٍ.

لقد ظلت طويلاً تبحث عن السعادة الحقيقية التى ستمكث فى الأرض بعد رحيلها، والتى ستظل ترفرف بجناحيها حاملة روحها فى كل مكان تركت فيه ذكرى طيبة، وعملاً صالحًا لن ينساه كل محتاج، وسيفتقده كل ذى سؤال.

(٩٧)

"اغتراب"

بعدما لم يجد فرصة فى بلاده للعيش الكريم هو وأسرته، لم يكن أمامه سوى العمل فى دولة نفطية يساعده عمله فيها أن يُكوِّن نفسه ماليًا، ويكوِّن لأسرته ما يغنيهم عن سؤال اللئيم، أو الرجوع لحال الفقر الأليم. ولم ينس فى نفس الوقت أن يحجز مكانه فى الوظيفة الحكومية فى بلده، ليظل منتظرًا إياه لحين انتهائه من مهمته القتالية فى بلاد الغربة، فيضمن بذلك معاشًا ملائمًا وتأمينًا قد يحتاجه بعد عودته واستقراره فى بلده العزيز، الذى يرغب فى أن يُدفَن فى ترابه الغالى بعد رحيله عن الدنيا.

لذا سافر واغترب، وأمضى جُل شبابه فى بلدٍ شقيق لو كان قد عمل فى غيره من البلاد الأجنبية غير الشقيقة، والتى يُطلَق عليها البلاد الغربية، لأصبح واحدًا من مواطنيها لا رعاياها. ومع الاغتراب يحدث الاستغراب بغض النظر عن غربية البلد أو شرقيتها. وفى الغربة يعتاد المرء على البُعد، ويألف البعاد، لا بجسده فقط بل بكيانه كله، فتتجمد مشاعره، وتقسو ملامحه، وتتغير قسمات وجهه، فينسى الفقراء فى بلده، ويتجاهل ما كان يشاركهم فيه قبل فراره مما يعانونه من يأس محيط، وإحباطٍ جم، ومهانة تفرضها الحاجة ويدفع إليها العِوز.

وما أن عاد المغترب من سفره الطويل ليستقر فى بلده العليل، حتى اكتشف مَن حوله أن غناه قد أغناه، واستغنى به عن كل شيء، وأنه قد فرَّ من فقر المال إلى افتقار النفس، ومن ذل الحاجة إلى مذلة الكِبْر، ومن ضيق الحال إلى ضيق الصدر، ومن الاكتفاء بالقليل إلى الإلحاح فى الحصول على المزيد. ومع خروج الملايين مطالِبة بكل ما هو مشروعٍ لهم، ومخلصٍ من عللهم، تجده هناك واقفًا بعيداً، ومتجهمًا من تهور العبيد، لمجرد تفكيرهم فى التخلص من أغلال القهر التليد.

(٩٨)

"اتباع وتقديس"

استيقظ مبكرًا من نومه للحاق بالركب المسافر من عالم الدنيا، وما تحويه من ذخائر الفتن ونفائس النعَم، ملقيًا وراء ظهره ما أثقلت به كاهله من أحمال همومها وتبعات مشاغلها، ليشد الرحال متجهًا إلى عالم جُلاسه يجمعهم مديح الأتقياء، والتعلق بالأولياء، رغبةً فى الوصول لخالق الأرض والسماء. كان الركب مليئًا بالمسافرين مثل كل عام، وكان هو من بين من جدوا فى التعلم والتلقى، وجاهدوا فى التأمل والتدبر، فلم ينكر على مخالفيه سوى المغالاة فى تقديس البشر، والتعلق بكراماتهم دون السعى للاقتداء بهم. كان يرى ويسمع من يستنجد بهم ويتمسح بأضرحتهم، ومع ذلك لم يجرؤ أن ينهر أحدًا منهم أو يتهكم عليه. كان دائمًا يلتمس لهم العذر، ويشفق على حالهم، محاولاً البحث عن مخرج لهم من تلك المصيدة، التى غرتهم بحُسنِها وبهائها حتى أوقعتهم فى شباكها طمعًا منهم فى خيراتها.

كان الأمل يراوده دائمًا فى أن يتغير حال هؤلاء من الانسياق وراء الخرافات إلى البحث عن الحقائق والتجليات، ومن الانغماس فى الملموسات إلى الانجذاب للمحسوسات، ومن الرغبة الملحة فى التعلق بكل ما هو مجسَّد ومصوَّر إلى القدرة على استيعاب سمو الغيب وارتفاعه عن كل تصوير صاغته

عقول السابقين، تلبية لما رضى به هواهم من تصور ذهنى سهَّل عليهم الغَى ومكَّنهم من البغى.

وفى كل مرة كان يلتقى فيها معهم، كان يعلم جيدًا أن آماله لهم لا تكفى وحدها للتغيير من سلوكياتهم، أو للتعديل من قناعاتهم، وأنه لابد من سعى دءوب وعملٍ جاد ينتشل هؤلاء من بئر الحاجة الملحة إلى طلب المعونة من البشر، ويرفع بهممهم إلى الاستنجاد دائمًا وأبدًا بخالق البشر وحده دون غيره.

كان مقتنعًا بأنه إذا تبدلت الأفكار وتغيرت المفاهيم والقناعات، فستتغير حتمًا السلوكيات، وأنه لن تحل أية فكرة مكان أخرى بسهولة ويُسر، بل إن ذلك الإحلال يتطلَّب عزم كل ذى قلب يرغب بصدق فى أن يفتح عقله بإرادته الحرة ليعيد النظر فى قناعاته التى لم يفكر فيها من قبل قط.

ولن يتأتى ذلك التفكير الحر إلا لبشرٍ قادرين على إزالة أية عُصابة توضع على أعينهم كى تمنعهم من الرؤية الواضحة، وتجبرهم على أن يظلوا تابعين طوال الوقت لا يبحثون إلا عن من يمسك بأيديهم ليقودهم فى طريقهم، ولا يترك أيديهم إلا عندما تصل إلى مكانٍ واحدٍ فقط ما أن تتلمسه متكأة عليه إلا وجدت عنده متبوعيهم أنفسهم، ولا أحد سواهم.

ولن يستطيع الرؤية بوضوح إلا كل من يُقدر معنى الحرية، ويعرف قيمة العقل، ويقدس المساواة بين البشر فيما بينهم، وينكر كل تبعية عمياء، ويدرك كنه اقتراب الخالق وقربه من مخلوقه، وحقيقة التقرب إلى الرقيب القريب وكيفية الاستعانة به، ويلتمس فى حياته النجاة لنفسه بنفسه بلا وسيط أو وكيل أو شفيع أو كفيل.

وفى هذا العام قرر ذلك المسافر إلى الله وهو فى رحلته إليه أن يرشد غيره من المسافرين، ربما أراد أحدهم أن يلحق به فى دربه الذى اختاره لنفسه بنفسه، فكتب عبارة قصيرة فى لفافات ورقية صغيرة، وقام بوضع كل واحدة منها فى يد كل من يقابله فى رحلته. وكانت تلك العبارة التى كتبها تحوى كلمات قليلة للذكرى وللتذكير، وهى: "ادعونى .. أستجب لكم، واذكرونى .. أذكركم".

(٩٩)

"رُبْع قرْن"

هل كان لابد أن تمضى من العمر خمسة أعوام، وعشرون آخرون، كى تتضح الصورة أمامه؟ وهل كان لامفر من مضى ربع قرن من الزمان ليكون هو من هو؟ لقد عانى الكثير لكى يحيا، وصمد أمام الموت أكثر من مرة رغمًا عنه، ولم يكن يدرى لماذا استسلم لنداء الحياة، وكيف سلَّم نفسه لخالق السماء، فبعد أن ظل أمدًا طويلاً يريد أن يستقل بنفسه، وأن يخلصها من كل قيدٍ وأسر، لم يشعر بذاته سوى ونفسه خالصة مخلِصة فى تسليمها لواهب الحياة.

مضت الأعوام رغمًا عنه لتحمل إليه تجربته فى الحياة ماثلة أمام عينيه، ولتفاجئه بأنه ربما كان مختارًا وليس مجبرًا ليكون ضمن من تم استدعاؤهم للوجود كبشر أحياء على تلك الأرض الكروية، وليوقن بأن من كُتِب له الموت قبله بعد حياة قصيرة لم يكن من الممكن له أن يكون سوى ما كُتب له أن يكونه. وبالفعل فقد كان قبل موته ذلك المخلوقٍ النقى الجميل الذى زار الحياة الدنيا مارًا عليها مرور الكرام، وكأنه أطهر من أن يمكث فى الأرض ما يمهله لتلقى ابتلاءاتها، أو أنه أقل مكانة ممن سيحملون الأمانة فيؤدونها حق أدائها، أو أنه أرفع مقامًا ممن سيحملونها ويفرطون فيها خائنين لعهدهم القديم، أو غافلين عنه نسيانًا له وتناسيًا لقدْرِه.

لقد كان هو، وكانت حياته، وكان قدره الذى لم يكن واعيًا له فى البداية، فأضحى مُسلِّمًا به حتى النهاية. وقد كان طريقه الذى جاهد ليختار خطواته فيه، فإذا به هو الذى يقوده إلى ما سلمت به نفسه وهو فى عالم الذر، ليكون عمله مرآة إيمانه، وليكون قدَره أن يكون واحدًا من ضمن ملايين البشر الذين هبطوا ليصعدوا مرة أخرى، وعاشوا ليكونوا شهداء على مواجهة الحق للضلال، وليعلو معهم صوت كلمة العدل، فتُسمِع كل ظالم مهما استصغر حجم ظلمه، ولتكون رحلة حياتهم أملاً لكل حي، وعبيرًا لكل عاشق، وفقهًا لكل عالم، ومثلاً يُحتذَى به فى الصمود إلى أن يحين موعد الصعود.

(١٠٠)

"سواسية"

استرعى انتباهها كلمة "هم" الجمع التى لجأت إليها كل جماعة مجتمعة مع بعضها البعض لتمكنها من التعبير عن الغيرية. فأدَّت وظيفتها على أكمل وجه خاصة فى مقابلتها لكلمة "نحن". ولفت نظرها أيضًا أن "تاء" التأنيث المضافة لكل وصفٍ مذكر فى نهايته، أو التى تحل محل حرف التذكير فى بداية أى فعلٍ مذكر معلنة وجودها وحضورها الملحوظ، ما زال يأبى الكثيرون أن تفيد أى معنىً للإضافة. وكأن الضمير "هم" قد تم التعامل معه بضمير صِرف، بينما حرف "التاء" ظل مُحتقَرًا ليس لكونه حرفًا، بل رغبةً فى أن يظل حرفًا مجهولاً لا قيمة له، ومستضعفًا وسط الكلمات لا مكانة له، حتى لقد أضحت كل من تحمل تاء التأنيث تعيش وكأنها نصف كائن يظل منتظرًا دائمًا للنصف المذكر الذى سيكمِل كينونتها، فتصبح واحدًا صحيحًا يظل بقية عمره لا يحميه سوى نصفه المذكر، الذى يفخر من حينٍ لآخر بأنه نجح فى أن يُكمِّل ذلك النصف المؤنث الضعيف، غير متقبلٍ هو لوصفه بالنصفية حتى وإن ظل بلا أنثى طوال حياته.

وفى الجانب الآخر لم يكتفِ كل من قال "هم" بالاستعلاء على كل أولئك الـ "هم" ممن غيرهم، ليصلوا بذلك بأنفسهم إلى مرتبة الأغيار والمخالفين، وليس فقط المختلفين عن غيرهم فى أشياء والمشابهين لهم فى أخرى. لقد قادهم

هذا الاستعلاء إلى طريق الاستعداء الذى ملأ قلوبهم غلاً دفينًا، وحقدًا موتورًا، وغضبًا لا مبرر له. ومن الاستعلاء ثم الاستعداء كان لابد من تأجج الصراع ثم القتال بين أولئك الـ"هم"، وبين من ينظرون إليهم على أنهم "هم" آخرون.

ولم يدرك كل "هم" يحارب "هم" آخرين أن هناك مخلوقًا غيرهم بالفعل ومختلفًا فى مادة خلقه عنهم، قد أقسم منذ أزلٍ قديم على التربص بهم ليمنع وصولهم لنعيم الخلد الذى يفوز به من وعى أن جميع البشر ليسوا سوى "نحن"، وأن الحياة التى يتنازعون متاعها الزائل قصيرة وفانية، ولا تستحق التمسك بضمير "هم" إذا كان موصلاً للتمييز وللتميز عن "نحن"، وأن الدنيا برغم كونها مؤنثة بالفعل، إلا أنها ستحلو أكثر كلما تمت إضافة "تاء" التأنيث لكل ما فيها، طالما كانت هذه الزيادة ذات إفادة، وليست بحكم العادة.

الفهرس

مقدمة ٨

(١) "شعاع نور" ١١
(٢) "ثقب الإبرة" ١٣
(٣) "الاستيقاظ قرار" ١٥
(٤) "فاضل" ١٦
(٥) "مِن بعيد" ١٧
(٦) "عبد السلام" ١٨
(٧) "صِدق الرحم" ٢٠
(٨) "الكتاب والميزان" ٢١
(٩) "جامع القمامة" ٢٢
(١٠) "فن التبليغ" ٢٤
(١١) "صفحة بيضاء" ٢٦
(١٢) "قسوة وتحمل" ٢٧
(١٣) "سيادة المدير" ٢٩
(١٤) "نصف صديق" ٣٠
(١٥) "اختباء" ٣١
(١٦) "رحيل" ٣٢
(١٧) "من داخل القصر" ٣٣

(١٨) "بريق"	٣٥
(١٩) "صورة مصطنعة"	٣٧
(٢٠) "انحناء"	٣٨
(٢١) "اثنان فى واحد"	٣٩
(٢٢) "حُكم القريب"	٤٠
(٢٣) "طِيب المغادرة"	٤١
(٢٤) "تسليم واستسلام"	٤٣
(٢٥) "الحمير والعصافير"	٤٥
(٢٦) "القانون"	٤٦
(٢٧) "براءة طفلة"	٤٧
(٢٨) "الله أكبر"	٤٨
(٢٩) "الاكتفاء والشبع"	٥٠
(٣٠) "نداء الحب"	٥١
(٣١) "وهم التقى وزيف الصلاح"	٥٢
(٣٢) "عُلبة"	٥٣
(٣٣) "البر والطاعة"	٥٤
(٣٤) "الوصية"	٥٥
(٣٥) "إصرار"	٥٧
(٣٦) "الرسالة المطوية"	٥٩
(٣٧) "نضوج"	٦١

(٣٨) "بصيرة" ٦٣
(٣٩) "إقدام" ٦٤
(٤٠) "تجسيد الغيب" ٦٦
(٤١) "مصرع قطة" ٦٨
(٤٢) "رحلة سلام" ٦٩
(٤٣) "جبال الصمت" ٧٠
(٤٤) "خارج البرواز" ٧١
(٤٥) "الصعود للمنتهى" ٧٣
(٤٦) "الشيطان الجميل" ٧٤
(٤٧) "وِصال" ٧٥
(٤٨) "موكب النعى" ٧٧
(٤٩) "اتجاه القبلة" ٧٩
(٥٠) "اتساع المدى" ٨٠
(٥١) "تلقين" ٨١
(٥٢) "العبَّارة" ٨٣
(٥٣) "المواجهة" ٨٥
(٥٤) "الخروف وسائق الحنطور" ٨٧
(٥٥) "فِرار" ٨٩
(٥٦) "سقوط الشجرة" ٩٠
(٥٧) "تجدد الحياة" ٩٢

(٥٨) "سوء تقدير"	٩٤
(٥٩) "صورة الطفولة"	٩٦
(٦٠) "تلاقى الأرواح"	٩٨
(٦١) "رجاءً .. الالتزام بالخطة"	١٠٠
(٦٢) "القدوة"	١٠٢
(٦٣) "سلام بالإكراه"	١٠٤
(٦٤) "انتحار"	١٠٧
(٦٥) "سُعار المَجد"	١١٠
(٦٦) "لا تتعجل الابتعاد بعد اقتراب"	١١٢
(٦٧) "الإذاعة المدرسية"	١١٤
(٦٨) "انغماس"	١١٦
(٦٩) "ضد التشويه"	١١٨
(٧٠) "القِصاص"	١٢٠
(٧١) "عاقبة التدليل"	١٢٢
(٧٢) "باقة زهور"	١٢٤
(٧٣) "البُرص"	١٢٦
(٧٤) "مسئولية الاختيار"	١٢٨
(٧٥) "روح الفريق"	١٣١
(٧٦) "السمعة مقابل المال"	١٣٣
(٧٧) "لسنا مستنسخين"	١٣٥

(٧٨) "انتظار الخلاص" ١٣٧

(٧٩) "قرار" ١٤٠

(٨٠) "أنانية" ١٤١

(٨١) "صمت وحرمان" ١٤٣

(٨٢) "الحرية حياة" ١٤٥

(٨٣) "الشعرة البيضاء" ١٤٧

(٨٤) "كرسى العمودية" ١٤٨

(٨٥) "الدرس الخصوصى" ١٥٠

(٨٦) "الخَلق والميلاد" ١٥٤

(٨٧) "الغزالة والأشبال" ١٥٧

(٨٨) "وابل النعم" ١٥٩

(٨٩) "القائد الصريع" ١٦١

(٩٠) "سِر الإيمان" ١٦٣

(٩١) "حنان بلا قسوة" ١٦٥

(٩٢) "النصر للخير" ١٦٧

(٩٣) "طمع الأغنياء" ١٦٩

(٩٤) "ذكرى التكريم" ١٧٠

(٩٥) "إنصاف" ١٧٢

(٩٦) "السعادة عمل" ١٧٥

(٩٧) "اغتراب" ١٧٧

(٩٨) " اتباع وتقديس"	١٧٩
(٩٩) "رُبع قَرْن"	١٨٢
(١٠٠) "سواسية"	١٨٤
الفهرس	١٨٦
رسالتنا	١٩٢

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

نشر كل إنتاج إبداعي ذي جودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook.com/arabiclibrary2017